



مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

بدر شاكر السياب ..
شاعر القرن العشرين
(دراسة وفختارات)

إعداد

ماجد صالح السامرائي

الكويت

2016



مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثقافية



التدقيق الطباعي
محمود إبراهيم البجالي

الصف والتنفيذ

أحمد متولي أحمد جاسم

علاء محمود

الإخراج وتصميم الغلاف

محمد العلي

حقوق الطبع محفوظة

هاتف: +٩٦٥ ٢٢٤٣٠٥١٤

فاكس: +٩٦٥ ٢٢٤٥٥٠٣٩

E-mail: kw@albabtainprize.org

التصدير

بدر شاكر السياب شاعر عربي كبير من العراق وأحد الشعراء المشهورين في الوطن العربي كله في القرن العشرين، ولد في قرية «جيكور» التابعة لمحافظة البصرة جنوبي العراق عام ١٩٢٥، وتوفي في المستشفى الأميري في دولة الكويت بعد رحلة علاج في عدد من المدن والعواصم العربية والغربية كبغداد وبيروت وباريس ولندن، ونقل جثمانه من الكويت إلى مسقط رأسه قرية «جيكور» في شهر ديسمبر من عام ١٩٦٤، وكانت قد توفيت والدته وهو في السادسة من عمره، فكان لوفاتها أعمق الأثر في نفسه، ولاحقاً في شعره.

أخذ الشعراء والنقاد والأدباء يهتمون به كظاهرة جديدة في الشعر العربي اهتماماً كبيراً، واعتبر في رأي كثير منهم السابق إلى قصيدة التفعيلة والأكثر وفاء لشروطها الفنية، إذ فتح أمامها الآفاق لتتسع وتنتشر بمستوياتها الإبداعية المختلفة، متخذاً من لغة الرمز والأسطورة والتناص أسلوباً في كثير من قصائده.

ترك بدر شاكر السياب إرثاً شعرياً غزيراً، اصطبغ في مجمله بصبغة الأطوار التي تقلبت فيها حياته المعاشية والاجتماعية والفكرية التي عايشها خلال سنوات حياته، فقد نُشر له ستة عشر عملاً، وهذا يشف عن غزارة عطائه، ويدل على أصالة دوره في تشكيل القصيدة الحديثة التي ترك بصمته الفنية فيها وريادته الخاصة في كل الأجيال اللاحقة من بعده.

ووفاء من مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين الثقافية لدورها في الاحتفاء بالشعر والشعراء، فقد جعلت احتفاءها في مهرجان ربيع الشعر في موسمه التاسع بالشاعر بدر شاكر السياب إلى جانب الشاعر الكويتي سليمان الجارالله - رحمهما الله -، وكلفنا صديق المؤسسة؛ الأستاذ ماجد صالح السامرائي اختيار مجموعة من قصائد الشاعر التي نضعها - عزيزي القارئ - بين يديك في هذا الكتاب «بدر

شاكر السياب.. شاعر القرن العشرين/ دراسة ومختارات» والتي نقرأ فيها عالم الشاعر.. آلامه وأوجاعه، وآماله وأحلامه، في جمالية إبداعية مميزة، عمادها خيال سامق، وعاطفة حاملة، وأنة صادقة.

يقول في إحدى قصائده:

كان للأرض قلب أحسُّ به في الدروب

في البساتين

في كل نهر يرؤي بنيتها

أه جيكور جيكور

ما للضحى كالأصيل

يسحب النور مثل الجناح الكليل

ما لأكوأخك المقفرات الكئيبة

يحبس الظلّ فيها نحيبه

أين، أين الصبايا يوسوسن بين النخيل

عن هوى كالتماع النجوم الغريبة؟

أين جيكور؟

جيكور ديوان شعري

موعد بين ألواح نعشي

وقبري..

هكذا كان التصاقه الروحي بقريته ووطنه.. وهكذا كان يرى «جيكور» في شعره.

وختاماً.. نشكر الأستاذ السامرائي على حُسن الاختيار وعلى كتابة المقدمة

الضافية التي جعلها في مفتح هذا الكتاب.. فله الشكر والتقدير.

والله ولي التوفيق،،،

عبدالعزیز سعود البابطين

الكويت في ٢٠ من جمادى الأولى ١٤٢٧هـ

الموافق ٢٨ من فبراير ٢٠١٦م

هذه المختارات

السياب: الشاعر ووجوه الابداع الشعري

(١)

حين نذكر اسم الشاعر بدر شاكر السيّاب نستعيد معه سيرة شعرية تجديدية مضيئة معها أصبح سؤال الشعر، وسؤال التجديد مرتبطان بهذه السيرة الإبداعية التي يؤلّفها الشعر أكثر من «الوقائع الحياتية».. فالشعر هو المكوّن الفعلي لبنائها، كما أن الشعر الذي كتبه الشاعر هو مصدر الاهتمام به نقدياً. وقد لعبت ثلاثة عناصر في تكوين شخصية السياب الشعرية، وفي مسار تجربته.. وهي:

- التجارب العاطفية التي عاشها في مقتبل حياته، وفي سنيّ دراسته الجامعية ببغداد في النصف الثاني من أربعينات القرن العشرين، والتي لم يحصد منها سوى: الشعر، في مستوى الابداع.. والخيبة، على المستوى الشخصي...
- والرؤيا التغييرية التي سيتوجّه بها إلى الواقع، متخذاً من الإنسان (في ما وجد له من تمثيلات في ما يمكن التعبير عنه بـ «المعادل الأسطوري»..)
بطلاً فيها: يحمل رؤيا التغيير، ويدعو إليه، ويكون العنصر الفاعل فيه، فإن واجه الموت فإنّ «موته انتصار»، بحسب ما تحمله «الأسطورة التمزوية» من رؤيا دلالية سيُجددها في غير قصيدة..

- ثم تجربة المرض، بآلامه الممضة، والذي أصبح يهدد حياته في كل لحظة وأن، ليكتب، في مواجهته، مستعيداً ما احتشد في ذاكرته من حيوات ومن

حركة ذاتية، وبما كان لتلك التجربة من تصاعد آثار الجانب العاطفي من حياته واستدعاه، فضلاً على تساؤله الدائم عما يُعاني من آثار المرض، منتهياً، بذلك، إلى سؤال الموت.

هذه العناصر/ الحالات الثلاث هي ما يتشكل منه النسيج الشعري الجامع لهذه المختارات التي تمثل محاولة للتواصل مع مساره الإبداعي بدءاً من قصائده الأولى التي سبقت بدايته التجديدية في قصيدة «هل كان حُباً»، وحتى آخر قصيدة كتبها وهو يُنازع الموت منطرحاً على سرير المرض: «المعول الحجري». والمقصود من هذا «التمثيل الجامع» الذي يقع في مدى زمني يبدأ بالعام ١٩٤٤ وينتهي عند نهاية العام ١٩٦٤، هو جلاء الصورة الشعرية لهذه الأعوام العشرين التي كانت أعوام فعل وتفاعل شعريين، وأعوام إبداع وابتكار، كان الشعر فيها هو «اللحظة المستمرة» التي تساعدنا، قراءً معنيين بشعره، ونقاداً دارسين لتجاربه، على استجلائها بما تمثل من مسافة مفتوحة: فديوانه الذي منه كان البدء، والذي بات «بين العذاري باتٍ ينتقل»، سيستكمل فيه/ ومعه مسيرته ليكتمل عطاءً إبداعياً ينتقل، وباهتمام واضح، بين أيدي النقاد والدارسين الذين وجدوا في شعره ما لم يجدوه، وبالمستوى الإبداعي المتحقق، عند سواه من الشعراء المجددين.

(٢)

في العام ٢٠١٤ استعاد المثقفون العرب، شعراء ونقاداً ومعنيين بشؤون الإبداع، الذكرى الخمسين لرحيل الشاعر الكبير بدر شاكر السياب (١٩٢٦-١٩٦٤)، وقد عدت «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الألكسو» هذه السنة «سنة عربية للسياب».. إلا أن ما تمّ فيها من فعاليات ونشاطات لم يرقّ إلى أقل ما للشاعر من حضور، ومن منجز شعري ما يزال له تأثيره الواضح في حركة التجديد، وحظوته باهتمام الدارسين والنقاد...

وفي هذا العام (٢٠١٦) يحل العام الثمانون لميلاد الشاعر، ما يمكن أن يشكّل حافزاً آخر لاعادة قراءته، والاحتفاء به شاعراً رائداً في مجال التجديد، وما يزال الشاعر الأكثر حضوراً في ما أصبح لهذا التجديد من مشهد واسع وكبير.

وإذا كان حياة شاعر أن تُوصف بالقلقة، فإنّ هذا الوصف ينطبق على حياة السياب، سواء في جوانبها الاجتماعية، أم في الجوانب السياسية، أم في تلك المنعطفات الحياتية التي انتهت بمرض أسلمه إلى موتٍ مبكّر:

- فهو اجتماعياً عاش حياة فقدت الاستقرار، إلا في حالات نسبية.. إذ فقد أمّه في طفولته، لتتركه يتيماً بين يديّ جدّته التي رعته، ثم ما لبثت، هي الأخرى أن رحلت وتركته وحيداً مع أبٍ منه «قد جرّده النساء»، إذ تزوّج من بعد وفاة زوجته، أم الشاعر، ليجد نفسه مجرداً من العناية والرعاية التي يأمل بها فتى صغير السنّ - هكذا وصف الحالة في قصيدة من قصائده المبكرة، ما يشير إلى حرمان عاطفي سنجدته يسعى إلى ما يُعوّض به عنه في مَنْ أحبّ في فترة نضجه وشبابه الأول...

وإذا كان قد حمل معه، يوم جاء بغداد في أواسط أربعينات القرن العشرين، أكثر من «قصة حب»، أكبرها وأكثرها تأثيراً في حياته حبّه «وفيقة»، فإنه في «دار المعلمين العالية»، التي سيدرس اللغة الانكليزية وأدبها فيها، عاش أكثر من قصة حبّ (اعترف، هو نفسه، بسبع منها!)، ولكنها، جميعاً، انتهت إلى الفشل والخيبة (كما سيذكر أسباب ذلك في قصيدته: «أحبيني..» المدرجة ضمن هذه المختارات).

وستعرف حياته قلقاً وظيفياً من حيث العمل: بين التدريس الإعدادي الذي لم يستمر معه طويلاً بحكم قرار حكومي بعزله لأسباب ساسية، والعمل الهامشي في الصحافة، ومن ثم في وظيفة لا تمتّ إلى اختصاصه، أو اهتمامه بصلة، منتقلاً بين

غير مدينة، وإن كانت المدة الأطول له منها في بغداد.. التي سيغادرها مطلع الستينات عائدًا إلى مدينته، البصرة، فيعمل موظفًا في «مصلحة الموانئ العراقية» فيها.

وأما سياسيًا.. فإن كان قد جاء بغداد، أول ما جاءها، منتميًا إلى «الحزب الشيوعي العراقي»، ليوافه التضيق عليه والمحاصرة، ما اضطره إلى الهرب من ملاحقات السلطة الحاكمة، فيلجأ إلى الكويت التي وصلها من طريق إيران، ومكث فيها مدة من الزمن مع بعض من «رفاقه»، كتب فيها القصيدة التي مثّلت تحولاً واضحاً في مساره الشعري (أعني: غريب على الخليج). ومن هناك ستبدأ بوادر التناقض بينه وبين الشيوعيين. وكانت قصيدته المطولة «المومس العمياء» (١٩٥٤) قد تضمنت ما يشير إلى هذا التناقض في «الرؤية الاجتماعية» بما تحتم على ذلك من موقف. ونتيجة لما عاش من حالات المضايقة التي تعرّض لها في فترة «المد الشيوعي» من بعد ١٤ تموز ١٩٥٨، واعتقاله من قبل «السلطة الحاكمة» آنذاك، سيكتب، من بعد انحسار هذا المد، مذكراته «كنتُ شيوعيًّا» (١٩٥٩)، فكانت من أعنف ما كُتب عن الشيوعية والشيوعيين في تلك الحقبة التي شهدت صراعات حادة وعنيفة.

من بعد انفصاليه عن الشيوعيين، سيقترّب أكثر من بعض «الوجوه القومية العربية» في محيطه البغدادي، وسيكون أقرب إلى الفكر القومي الذي بدت تأثيراته واضحة في غير قصيدة كتبها في هذه الحقبة، يمكن وصفها بكونها «عروبية الرؤية والموقف»، وستكون مجلة «الأداب» البيروتية فضاء النشر المفتوح أمامه.

أما حقبة المرض (١٩٦٠ - ١٩٦٤) فستكون الحقبة الأكثر شقاوة حياتية وعذاباً جسدياً له، إذ عاشها منتقلاً بين مدن عديدة بحثاً عن شفاء مما حلّ به من مرض ملازم، فتنقل بين بيروت، ولندن، وباريس.. ولكن حالته كانت تزداد سوءاً،

وقواه الجسدية تميل، شيئاً فشيئاً، إلى الانهيار.. فتكون رحلة الرجاء الأخيرة إلى الكويت، حيث رقد في «المستشفى الأميري» فيها.. ولكن من دون جدوى... إذ ما لبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة هناك في ٢٤ كانون الأول ١٩٦٤، وجرت العودة به جثماناً إلى مدينته: البصرة، ليُدْفَن فيها.

وأما «قلقه الإبداعي» فكان في صالح الشعر، وفي مصلحته شاعراً بما عرف شعره من تحولات مهمة في مجال التجديد الشعري بما كان له فيه من عطاء متميز في مستويات الإبداع الشعري كافة.

(٣)

فالشاعر الذي بدأ حياته الشعرية أواسط أربعينات القرن العشرين بما اتخذ، في ما كتب، من منحى رومانسي، تمثلت فيه، يومها، التجربة الأكثر حضوراً في الواقع الشعري، كان أن بدأ بذلك من تجربته الذاتية، معبراً عن صبواته، ومتطلعاً إلى أفق لا يعلو كثيراً على الواقع، ثم لم يلبث أن دفع بأحزانه إليها، معبراً عما كان قد داخل حياته، منذ بداياتها، من انكسارات روحية تمثلت بالغياب المبكر لأمه (وقد «طواها الردى المُعْجَلُ)، ومن واقع أبيه الذي منه قد جرّده النساء.. ثم وفاة جدته التي رعته طفلاً وصيباً وفتى...

منتقلاً من هذا (من دون أن يتخلى عن رؤاه وتجاربه فيه) إلى التجربة السياسية والاجتماعية، بانياً قصائده فيها على قيم موضوعية، وأخرى تمثلت في مواقف أملت انتماؤه السياسية، وتجارب حياة كانت تتحرّك بالواقع حركة تحوّل، أو هذا ما كانت إليه تهدف وتُريد. وكما أن رومانسيته لم تُلغِ الواقع عنده، ولا ابتعدت بقصيدته عن هموم الإنسان فيه، وإنما ستعمّقها بروح التواصل الذاتي الحي.. فإن واقعيته الاجتماعية لم تبتّ ذلك الخيط المنعقد له مع الروح الرومانسي.

غير أن الانتقال الشعري الفعلية في مستوى تطوره الشعري ستكون مع قصيدته «غريب على الخليج» (١٩٥٣)، وفيها كان قد وضع الحد، شعرياً، بين الغربية - المنفى، والعودة - الانتماء للوطن، حاسماً «الموقف - الاختيار» بينه وبين «الانتماء السياسي» الذي شكّل له، حتى ذلك التاريخ، أزمة ذاتية فعلية.. لنجد، في هذه «القصيدة - نقطة التحول»، التعبير الحرّ عن الذات تعبيراً عن موقف في الوجود، ومن الوجود، مُصدراً عن رؤية أخرى للمستقبل، فضلاً عما اجتمع له فيها من تطور في مستوى الرؤيا الشعرية، وفي البناء الفني تعبيراً عن المعنى - المرتبط بما للحياة، والإنسان، والواقع من بُعد وجودي بمعانٍ بارزة ستفتح أمامه أفقاً آخر للذات الشاعرة، وهو ما تمثل في «الذات - المكان - الزمان». فهو فيها لا يستتطق «فكراً إيديولوجياً»، تفرضه «حالة انتماء» كان أن انفكّ منفصلاً عنها، وإنما أصبح هناك حشد من الحيات المتكاثفة بأصواتها، وبما لها من «فضاءات تخيلية» و«طاقات وجدانية».

(٤)

هذه الرؤيا، وهذا الموقف الذي ابتناه، هما ما سيكتمل، تواملاً، بما سيُعرف نقدياً بـ«التجربة التموزية» التي ستتسع فيها آفاق الرؤيا، وتعمّق التجربة وتتعدد مستوى، متوزعة بين «الموقف القومي» انتماءً، و«الرؤيا الكونية» أفق انفتاح على كل من الإنسان والوجود، جامعاً ذلك كلّ في صور حيّة، وكلمات تلتقي على رصانة التعبير وقوّته، و«معنى» هو المرتكز الوجودي للقصيدة. كما سيجعل من «الرمز الأسطوري» كيأناً حسياً معبراً عما واجه من حقائق الوجود، بنزعة تقترب من الإنسان والواقع أكثر من تعلقها بالملق.. فكان له من هذا، وفيه، ما كان من تطوّر في مستوى بناء القصيدة الجديدة بناءً حياً، ومؤثراً في تجربة الشعر العربي

الجديد، فخصّها النقد بتوصيفات جديدة، منها: «الوحدة العضوية» التي ستشكل إحدى الخصائص الفنية الأساسية للقصيدة الجديدة، كما سيتخذ النقد منها معياراً نقدياً لاختبار حداثتها. وفي «تموزياته» هذه عمد إلى إعادة بناء الواقع من خلال بثّ الرؤيا الثورية التغييرية فيه، والتصادي مع روح الإنسان المتطلع إلى غد أفضل. فقد بدت الحياة في «تموزياته» هذه حياة تتجدد المعاني منها لترسم/ تعبّر عن دلالات تتركز في الدعوة إلى التغيير، حيث للحقيقة وجه واحد.. ونجد المعاني فيها تتماهى ورؤياه التي كان الواقع مفتوحاً لها. ففي قصائده التي انبنت على الأسطورة والرمز الأسطوري نجده يُفكك الاثنين معاً فلا يعودا قائمين كلُّ بما له من «عناصر تكوينية» ميثولوجية، وإنما نجده يتحوّل بهما إلى محور آخر يتعيّن في علاقة الذات بالعالم، محيلاً عناصر التخيل/ ومتحوّلاً بها إلى مخيلته - التي نجدها مخيلة مفتوحة على تكوينات أغلبها مصدره الواقع، إذ كانت لهذا الواقع إلهاماته عنده: الواقع ببنائه التي جعل لها «بُعداً رمزياً»، والأصوات الهامسة فيه/ وله، همساً مسموعاً، بأسراره، والتمثّل لحالات التشابك والاشتباك التي يواجهها، سواء بالتوافق معها، أم بالاختلاف.

مسألة أخرى على جانب من الأهمية: ف «السياب التموزي» أطلق لحلمه في التغيير ما كان في وسعه أن يجتمع عليه من آفاق الخيال، ذاهباً بهذا الخيال عمقاً في ما كان يهجس به من إمكانات التغيير المُراد إحداثه في واقع المدينة، معبراً في هذا عن نوازع إرادية واثقة أكثر من كونها شاكّة.. وقد وضع الإنسان في الموقع الذي يمكن له من خلاله أن يُجري ما يرمي إليه من انقلاب وتحوّل.

غير أنه، وفي لحظة حاسمة في هذا المسار منه، وجد المدينة، التي حمل إليها رؤياه هذه، تخذله، وتُحاصر حلمه، وتقتل رمزه الأثير في ذلك (تموز).. ليخرج منها

طاوياً جناح الرحيل عنها، وعائداً إلى «جيكور»، قريته البصريّة الأولى، مستعيداً فيها/ ومعها ما كان له من أحلام، ومُقبلاً عليها بكل ما كانت له من رؤيا كيانية شعرية سيوظفها لهذا «العالم المستعاد»، متمثلاً ما لها من قيم باقية، حتى ليتمكن القول: إن العودة إلى جيكور مثلت للشاعر، في مستوى شعري وموقفي، ولادته الثانية، وإذ يوولد الانسان من جديد تتجدد، مع هذه الولادة/ وبها، رؤيته العالم.. وهذا ما كان.. فإذا هو، في قصائده منها/ وفيها، كمن يستعيد حياة كانت غائبة، أو غاب، هو الشاعر، عنها، محرّكاً زمانها بتساؤلاته التي جاءت تساؤلات بحث عن «الذات الأولى» في «المكان الأول» أكثر منها بحثاً عن المكان بذاته.. فهي الأفق الذي انفتح، مرة واحدة، لكلية إحساسه بالوجود المغير، جوهرًا، لوجود مرفوض (المدينة)، ما جعل من تعبيره عن «علاقته ذاتاً» بالمكان تعبيراً ذا حيوية داخلية حيّة تموج بالرؤى والأفكار. فهو على ما حاول، في غير قصيدة له من قصائده (التي سندعوها بـ «الجيكورية»..)، التفلّت من معطياته السابقة، والذهاب في مديات خيال لم يُفلت من الواقع - مع أن الخيال عنده، في قصائده هذه، لعب دوراً معادلاً لدور الواقع في بناء رؤيته الشعرية، وفي تشكيل رؤاه، ويتمثل هذا، أكثر ما يتمثل، في طبيعة ما داخله من أحاسيس، وما توفر عليه، تكويناً وتعبيراً، من صور حسيّة، بعضها معاداً لإنتاجه مما تراكم في الذاكرة، وبعضها الآخر من معطيات ذاته الابداعية التي كثيراً ما نجدها تُدرك الواقع بلغة الخيال، معبّرة عنه بتفرد مدهش. هذا إلى جانب ما أخذ به في بنائها التكويني، فنياً، من صور حسيّة جمعت بين بُعدين: العيان، والمجاز، مؤلفاً في هذا بين «الإدراك» و«صياغة المُدرك» على نحو انثالي متدفّق مصدره، مجتمعاً - على كل ما ينطوي عليه إحساس الشاعر من معاني/ أبعاد الانتماء إليه، وبيقين شعوري كيانى هو: يقين العودة.

وإذا كان في «تموزياته» قد كتب القصيدة المتفاعلة مع واقع عصره، برؤية شعرية مستمرة التجدد، جامعاً فيها بين حيوية الوعي النقدي ورهافة الحس الشعري.. فإنه في «جيكورياته»، استمراراً إلى قصائد حقبة المرض وتواصلها معها، كتب القصيدة المتفاعلة ذاتاً، في محاولة منه الانتصار للأمل بالحياة على الموت، ومنتصراً، في الحاليتين، للقيم الجوهرية التي تسند الحياة الإنسانية، كما تسند الوجود الإنساني للإنسان فيها.

بعد آخر: فهو إذ توجه نحو الأسطورة والرمز الأسطوري، في ما لهما من عمق ميثولوجي، كان أن فتح أمام قصيدته أفقاً آخر يقوم على «نقض الإيديولوجيا» التي خرج من «حال الانتماء» إليها خروج من تزعزع يقينه بأطروحاتها.. فكتب القصيدة التي تعقد «درامية التواصل» بين الإنسان - الوجود واللغة.

(٥)

لقد بدا في «تقصياته الجيكورية»، كما سيكون في تقصّي ذكرياته، ممتلكاً إحساسه بكل ما للإحساس من ذروة شعورية، فضلاً عن لغته الشعرية في قصائده هذه التي هي لغة يصح القول فيها: إنها لغة كانت تستجيب بسلاسة وطواعية لرؤياه. فهو لا يستنطق فراغاً، ولا يراود تهويمات تخيلية، وإنما يواجه، واقعاً وذكريات، حياة محتشدة بما راح يتكاثف عليه منها من تداعيات.. ووجد الألفة (أو أوجدها) مع «عالم مهجور» صار يُقلّب صفحاته الماضية مستعيداً بها/ ومن خلالها عديد الصور - التي لم يعد لبعضها من وجود إلا في ذاكرته. وفي هذا، لم يجلس على قارعة طريق منها، أو يقود إليها، مما ينتمي به إلى ذلك الماضي، وإنما وقف «موقف استعادة» لتاريخ (هو تاريخ القرية، بقدر ما هو تاريخ شخصي له فيها)، مستغوراً ما كان له فيها من حياة كتبها بصيغة من صيغ «التاريخ الوجداني» كي لا يضيع ماضيه بضياح حاضره (الذي أصبح محاصراً برؤيا الموت، ويقينه!)

من هنا كان الغنى الذي نجده في «المعجم الرمزي» لشعره في هذه الحقبة.. فهو بقدر ما يكشف عن واقع متعيّ مكاناً وزماناً، فإنه جعل لذلك الواقع «لغته» - التي سيتكلمها الشاعر - وهي لغة تحتشد بالتفاصيل الدقيقة.. والشروع، بدءاً منها، بالكشف عن «أسراره» إلى الحدّ الذي لم يعد معه من سرٍّ يحمله معه إلى القبر. فقد وضع أسراره في فم اللغة - التي باحتّ بكل شيء.

إن التحوّل الذي حصل، بالنسبة لتجربة الشاعر، بالانتقال من المدينة (بما لها من عواصف الحياة) إلى جيكور الوداعة، (بما لها من «ذاتية» خاصة عنده)، كان أن تحوّل به، شعراً، من تجاربه ذات البُعد الوجودي في كونية تشكلها من خلال رموزه التموزية، إلى «بعد ذاتي» يتعيّن بالذكريات واستعادتها، وهو ما سيؤلّف «تراكمًا موضوعاتيًّا»، بكل ما يحمل من تفاصيل، نجده بتجلياته الواضحة في قصائد حقبة المرض (١٩٦١ - ١٩٦٤) التي أخذ التعبير الشعري عنده في عديد القصائد منها بُعداً ذاتياً مباشراً، وغدت الصورة الشعرية، ذاتية التكوين والتفاصيل، هي الأكثر حضوراً بحكم كونها مثلتّ تعبيراً عن حالة شعورية قائمة، وعبرّت عن إحساس ممضٍ بما يتداعى على جسده من آلام.. وقد تعيّن التعبير عن هذا كله بُعدين اثنين، وهما: البُعد المتمثّل في الذكريات وقد راح يستعيدها بصفاء ذهني مدهش.. والبُعد العاكس لمعاناته وهو يعيش حالة مرض متصاعد ألاماً وإنهاكاً لقواه الجسدية، فضلاً عن محاصرته المكانية له (الغرفة، وسرير المرض).. ولم يعد معه من «الرموز» إلا ما أصبح يتداعى إليه من هذين العالمين.. (والرمز، في العادة لا يتحوّل عن طبيعته، ما جعل «تجربته الذاتية» في قصائد هذه الحقبة تفقد ذلك الارتباط الكوني الذي كان له في تموزياته).. إذ سيشكل الماضي (الذكرى) والحاضر (معاناة المرض) الأساس في بناء رؤيته/ رؤياه الشعرية، متحرّكاً، ومحركاً قصيدته بما له من دوافع ذاتية واجه بها حالة الفراغ، أو الانحسار حياةً، فجاءت قصائده ضرباً من النزوع نحو الذات، والملامسة الحيّة لروح لم تخفت عاطفة.

وكما في «تموزياته»، سيعكس شخصيته الشعرية بما لها من فرادة وتفرد. فهو إذ أعاد تمثّل جيكور تمثّلها أمّا (تلك أمي وإن أجنّها كسيحاً)، وفي هذا التمثّل حازّ منعطفاً في شعره.. فقد أخذ كل شيء يتمثّل له على صورتين: صورة الماضي الذي كان قد تركه فيها، وصورة الحاضر، في ما له من واقع متعيّن، لنجد «ضغط المكان»، بما له من إيقاع خاص، واضحاً في قصائد هذه الحقبة، فهي المكان الذي يمتلك، بالنسبة له، بُعداً دلاليّاً وقد وضعه في صياغات شعرية مكثفة.. أما في تعاطيه الشعري مع «رموزه الجيكورية» (وقبلها مع رموز من حقبة التموزية - كالمسيح، وجميلة بوخيرد) فينطلق بخيال يتوافق فيه الشعور منه والإحساس عنده توافقاً أقرب إلى التلقائية، وبفاعلية شعرية أساسها: معانيه المستمدة من علاقته ذاتاً بالواقع، والتي تُجدّد روح هذا الواقع، مقيماً من هذا رموزاً تتوازي وتلك الرموز الأسطورية التي استمدّها، معنىً ودلالة، من مصادرها الميثولوجية، ولكنه جعل من جيكور «مبنىً واقعيّاً» يتماهى والنمط الأسطوري، بمعنى/ وببُعد شعري متفرد انفتاحاً على العصر وانسانه. كما نجد علاقته بهذه الرموز علاقة ألفة، وإن جاءت محمّلة بالدهشة في ما ألّفت، بحركية حضورها، من عالم نجد الشاعر فيه ينزع إلى تجسيد رؤاه بصور حسيّة تداخلها فيوضات شعورية بما يجعل التعبير فيها يتداخل بايقاعين: داخلي (ذاتي)، وخارجي (قائم على ما يجد من إيقاع لمكونات المحيط يتواشج وإيقاعات ذاته). فيوم انطفأت المدينة في نفسه وعداً، وفي روحه حالة حضور، وجد في جيكور ما يعوّض به ذلك.

وكما جعل الأسطورة والرمز الأسطوري ينصاعان لرؤيته/ رؤياه، فإنه فعل الشيء نفسه مع التاريخ، بدءاً من قصيدة «في المغرب العربي» وصولاً إلى «جيكور» التي حوّلها إلى «ذات تاريخية» ابتناها من حياته فيها، ومن تداعيات تلك الحياة، - أكثر مما لها من «شواخص الوجود».. وفي هذا نجده يعلو بالتاريخ ليأخذ البُعد

الحقيقي له من خلال «تجسيد» العلاقة مع الزمن، ذلك أنه كان أن اندمج مع هذا التاريخ بما كان له من حيوية الحركة فيه - وإن من أفق الذكرى. ومن هنا لم يكن هذا التاريخ «متكأ» بقدر ما كان منبعاً/ منطلقاً لمعانيه الجديدة. فقد أخذ عن هذا التاريخ «حقائقه» ليواشجها مع ما يحمل من «حقائق ذاتية»، واضعاً إياها في مستوى من التلازم الزماني/ المكاني - ومن هنا ما نجده من «استطرادات المعنى» عنده. فهو لا يقف خلف التاريخ ليرويه، وإنما في مواجهته.

وكما كانت المعاناة في تجربته الذاتية تنتقل إلى الشعر مؤلفةً ما ينتظم في «الوجدان الجمعي»، فإن «الحلم الغائب - المستعاد» عاد إلى قصيدته بقوة هي قوة تفجرات الذات الشاعرة بما لها من مكامن مكانية - زمانية. وكما قام «تموز» من موته مجدداً وجه الحياة، قامت «جيكور» لتتفض عن نفسها تراكمات صمتها، فإذا هي، بما نهضت به من ذكريات، وحيوات ومشاهد وجود، تجتمع على حقائق إنسانية كبيرة. فهو في جيكورياته - لا يصف «مشاهد خارجية»، كما قد يبدو للوهلة/ النظرة الأولى.. بل يتعمق ما في المكان من روح إنسانية فيصوغها في قالب درامي التكوين والتشكيل، حافراً، بكلماته، في أعماق المكان، وناسجاً، على نول ذلك، بناءه الشعري. فهو الشاعر الذي تجمع قصيدته بين ثلاثة مكونات يُصدر عنها في ما يقول، وهي: الشعور، والإحساس، والخيال. وأما الفكر فهو ما يتحدد به القول موقفاً، سواء في ما يُصدر عنه، أو ينتهي إليه. وإلى جانب هذا فهي قصيدة ترتكز إلى أصول: قد تكون الأصول هذه مكانية (العراق المنادى من الغربية)، وجيكور.. وقد تكون هذه الأصول زمانية (الرموز الأسطورية والواقعية الحية)، وقد تجمع المكاني إلى الزماني في مستوى رؤيوي فريد (كما في قصائد الغربية والحنين إلى الوطن الأم). ونجد هذا كله في «خطاب طقوسي» ينعقد بتلقائية واضحة التعبير، وبصور شعرية تتداعى بفعل بلوغ التعبير الشعري عنده مستوى رؤيويًا عاليًا ينقل «الأساطير» و«الرموز» من واقعها المجرد إلى ما هو مجسد محسوس.

(٦)

إلا أن غبطة هذا اللقاء سرعان ما أفضت به إلى تجربة أخرى تمثلت في «حقبة المرض» الذي داهمه بقسوة وعنْف، وأخذ ذلك يتصاعد، حالة ووضعاً إنسانياً، مع الأيام، لينتهي بالموت: موت الشاعر.

وكما استتارت جيكور أحاسيس اللقاء الاحتفائي بها، ستكون الصلة بها، في قصائد حقبة المرض هذه، صلة افتتران بين «الخراب» الذي طالها بحكم تقادم الزمن، و«التداعي» الذي راح هدّ الجسد منه ليسلمه لـ «سرير المرض» الذي راح منه يستعيد الكثير مما كان له من ماضٍ حي عبّر عنه بما في روحه من قوّة كان يريد بها/ ومن خلالها مواجهة تداعيات الموت عليه.. فكتب، معظم قصائده فيها، بما للحياة من صيغ الحضور أكثر منها بصيغ انتظار الموت - وإن يكن «انتظاراً» مثلّ حضوره القويّ في قصائده الأخيرة التي استدعت إلى مخيلته «صور العدم» التي هربت «صور الحياة» أمامها (كما في قصيدته الأخيرة: المعول الحجري).

وسيستعيد، في غير قليل من قصائد حقبة المرض هذه، ذلك الروح الرومانسي الأول، فاتحاً لـ «رومانسيته الجديدة» آفاق تكوين جديد بتعبير جديد.

(٧)

لا يُنكر السياب أنه بدأ شاعراً رومانسياً، كما كانت بداية مجاليه من الشعراء المجددين الرواد. وما تطلعه إلى أن يكتب الشاعر علي محمود طه مقدمة ديوانه الأول «أزهار ذابلة» (١٩٤٧) إلا إقرار منه برومانسيته التي كان هذا الشاعر الرائد في رومانسيته من أبرز المؤثرين عليه، كما أثر بشكل أعمق على الشاعرة نازك الملائكة.

غير أن ديوانه الثاني «أساطير» (١٩٥٠) سيجمع إلى هذه الرومانسية نزعة واقعية ما لبثت أن تحولت إلى «واقعية جديدة» عبرت عنها أوضح تعبير مطولته

«المومس العمياء» (١٩٥٤)، ممثلاً بذلك ارتقاءً بالرؤية الشعرية، وبأسلوب الكتابة، واللغة، كما بطرائق التعبير.. لتتطور رومانسيته هذه من بعد حالة الانكسار التي أحدثتها المدينة في روحه ووجدانه، لتكون العودة إلى جيكور تمهيداً لعودة إلى ما يمكن أن نعدّه «رومانسية متقدمة ستتجلّى بصورها الجديدة في غير قليل من قصائد حقبة المرض التي نجد فيها تداخلاً واضحاً بين «حقيقة الواقع» و«مرآي المتخيّل». فالأحلام التي جدّد استعادتها، ذكرى وذاكرة، أعادت للمشاعر العاطفية، والأحاسيس ما أعاد به بناءها بمفردات جديدة كان فيها كمن يؤرّخ، عاطفياً، لحقبة استلّتها السنون من حياته، ولكنه يستعيدها بما يجعل لها من «تمثيلات متخيلة»، معبراً بها عما أضحى يعيش من حالة فراغ، ليس عاطفياً حسب، بل حياتي...

وإذا كانت حقبة المرض قد ظهرت على السطح بجميع تجلياتها، وبانزياحات الماضي إلى الحاضر، فذلك لأن العالم الأغنى الذي بقي له، ماثلاً أمامه هو: عالم الذاكرة، ليُقبل عليه بحنين وشوق، كما نظر فيه نظرة نقدية.. فقد قرأ ذلك الماضي بعين الحاضر الذي هو فيه، ما أتاح له أن يدركه إدراكاً مختلفاً عن إدراك البدايات الأولى التي صنعت ذلك الماضي، وقد انثالت عليه بتجليات العودة إليه.. وكان لهذا أن تمثّل في قصائد له انطلق فيها من تساؤلات حياة كانت له، وعن أسباب الخيبة التي وقعت له فيها - وإن كان قد نظر إلى الحياة بعين الموت التي نقلت التعبير عنده (أو انتقلت به) من «المجاز» إلى المباشرة. ف «الشاهدة» التي أصبح يحملها منتظراً وضعها على قبره جعلت من الموت «حالة منتظرة».

(٨)

لم تكن «ذات السياب» ذاتاً مغلقة على نفسها، أو دون الآخر والواقع، وإنما نجده يرى الحياة والعالم بذات منفتحة على وجود كان يفكر به تفكيراً شعرياً،

وبإرادة قويّة، حتى بدا العالم الذي يراه ويتأمل وجود الإنسان، ودوره فيه، وكأنه التجسيد لهذه الإرادة، أو فضاؤها المفتوح.

من هنا حصل الاقتران عنده بين الواقع والأسطورة - التي جعل منها حامل رؤى إنسانية واسعة الأفاق، وقد جمعت، في ما لها من دلالات - المعنى، بين الحب، والموت، والثورة، والخلاص.. واضعاً هذا كله في صياغات درامية عالية كان يهدف فيها إلى تحريك الواقع بتحريكه آمال الإنسان وتطلعاته فيه.
فالسحاب شاعر قويّ الحضور بقوة هويته الشعرية... ويبقى.

ماجد صالح السامرائي

بغداد: ١٨ شباط / فبراير ٢٠١٦





المختارات





ديوان شعر

(الى اللائي استعرن ديواني ليقرأه فبات
متقللاً ما بينهنّ، ونال من عطفهنّ ما حُرِّمَتْهُ
- أقدم هذه القصيدة... ..)

ديوانُ شِعْرِ، ملوؤه غَزَلُ
بين العذارى بات ينتقل..
أنفاسي الحَرِيّ تهيمُ على
صفحاته، والحُبُّ والأملُ
وستلتقي أنفاسهنّ بها
وتحومُ في جنباتِه القَبَلُ
ديوانُ شِعْرِ، ملوؤه غَزَلُ
بين العذارى بات ينتقل..

لما يَحِينُ النَّوْحُ والشكوى
كُلُّ تَقْوَلٍ: مَنْ التِي يَهُوِي؟
وسترتمي نظراتهنّ على
الصفحاتِ بينَ سَطوره نشوى
ولسَوْفَ تَرْتَجُّ النّهودُ أَسَى
ويُثِيرُها ما فيه من بَلوى
ولربّما قَرَأْتُهُ فاتنتي
فَمَخِضْتُ تَقْوَلٍ: مَنْ التِي يَهُوِي؟

سَيَرَيْنَ مَا لَاقَيْتُ مِنْ حُبِّي
فَيَصْحُنْ: يَا لِلْعَاشِقِ الصَّبِّ!
ولقد تسيلُ دموعهنَّ على
جنباته، مَوْصُولَةَ السَّكْبِ
يَا لَيْتَ قَلْبِي مِنْ قِصَائِدِهِ
لترى الحِسانَ الغِيدُ مَا قَلْبِي
سَيَرَيْنَ مَا لَاقَيْتُ فِي حُبِّي
فَيَصْحُنْ: يَا لِلْعَاشِقِ الصَّبِّ

ديوانُ شِعْرِي.. رَبُّ عَذْرَاءِ
أذْكَرْتَهَا بِحَبِيبِهَا النَّائِي
فَتَحَسَّسَتْ شَفَاةً مُقْبِلَةً
وَشَتَيْتَ أَنْفَاسٍ وَأَصْدَاءِ
فَطَوَّئِكَ فَوْقَ نَهْوِهَا بِيَدِ
وَاسْتَرَسَلْتِ فِي شِبْبِهِ اغْفَاءِ
ديوانُ شِعْرِي.. رَبُّ عَذْرَاءِ
أذْكَرْتَهَا بِحَبِيبِهَا النَّائِي

يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ دِيوَانِي،
أَخْتَالُ مِنْ صَدْرٍ إِلَى ثَانٍ..
قَدْ بَتُّ مِنْ حَسِيدٍ أَقُولُ لَهُ:
يَا لَيْتَ مَنْ تَهَوَّاكَ تَهَوَانِي!

أَلَكِ الْكَؤُوسُ وَلِي ثَمَالَتِهَا
وَلَكِ الْخُأُودُ وَأَنْنِي فَنَانِ؟
يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ دِيوَانِي،
أَخْتَالُ مِنْ صَدْرٍ إِلَى ثَانِ

كَمْ غَادَةٍ شَاهَدَتْ مَخْدَعَهَا
وَمَضَيْتْ تَسَهَّرُ لَيْلَهَا مَعَهَا!
قَدْ هَزَّهَا شَوْقٌ لِعَتَسْفِ
أَمْسَى هَوَاهُ يُسِيلُ أَدْمَعَهَا
فَمَضَتْ تَذِيغُ إِلَيْكَ قَصَّتَهَا
وَتَبَتْ هَمًّا فَلَّ أَضَاعَهَا.
كَمْ غَادَةٍ شَاهَدَتْ مَخْدَعَهَا
وَمَضَيْتْ تَسَهَّرُ لَيْلَهَا مَعَهَا!

سَتَعِيشُ بَيْنَ النُّورِ وَالْعِطْرِ
وَتَقْرُؤُ مِنْ صَدْرٍ إِلَى صَدْرٍ
فَتَرَى - التُّغُورَ تُعِيدُ هَامِسَةً
مَا فِيكَ مِنْ فِتْنٍ وَمِنْ سِحْرِ
وَالنَّهْدُ يَرْمِي الظِّلَّ فِيكَ عَلَى
رَوْضِ الخِيَالِ وَمِرْقَصِ الشُّعْرِ
سَتَعِيشُ بَيْنَ النُّورِ وَالْعِطْرِ
وَتَقْرُؤُ - مِنْ صَدْرٍ إِلَى صَدْرٍ



يَسْمَعُنَ فِيكَ أَغَانِي الرِّيفِ
 مَتَرْتُمَا بِحَسَانِهِ الهَيْفِ..
 المَاءُ يَشْكُو لِلجَرَارِ هَوًى
 وَالنَّخْلُ فِي صَمْتٍ وَتَعزِيفِ
 وَاللَّيْلُ وَالْأَنْسَامُ عَاطِرَةٌ
 وَالزُّورِقُ الغَافِي المَجَادِيفِ
 تُلْقِي مَسَامِعَهَا إِلَى الرِّيفِ
 يَشْكُو غَرَامَ حِسَانِهِ الهَيْفِ

سَأبَيْتُ فِي نَوحٍ وَتَسْهِيدِ
 وَتَبَيْتُ تَحْتَ وَسَائِدِ الغِيدِ
 أَوْ لَسْتُ مَنِّي إِنَّنِي نَكِدُ
 مَا بَالُ حَظِّكَ غَيْرِ مَنكُودِ؟
 زَاخَمْتُ قَلْبِي فِي مَحَبَّتِهِ
 وَخَرَجْتُ مِنْهَا غَيْرِ مَعْمُودِ
 أَبَيْتُ فِي نَوحٍ وَتَسْهِيدِ
 وَتَبَيْتُ تَحْتَ وَسَائِدِ الغِيدِ؟

دِيوَانُ شِعْرِ، مَلُوهُ غَزَلُ
 بَيْنَ العَذارَى بَاتَ يَنْتَقِلُ..
 أَنفَاسِي الحَرَّى تَهَيِّمُ عَلَى
 صَفْحَاتِهِ، وَالْحُبُّ وَالْأَمَلُ





وستلتقي أنفاسهنَّ بها
وتَحْوَمُ في جَنبَاتِهِ القُبُلُ
ديوانُ شِعْرِ، ملوؤُهُ غَزَلُ
بين العَذاري باتَ ينتقلُ..
بغداد ١٩٤٤/٣/٢٦



نهر العذاري

يا نهرُ، لولا مُنْحَنَاكَ وما يشابكُ من فروعِ
لاقتافتِ البسماتِ، في عَيْنِي، أثارَ الدموعِ

☆☆☆☆

حَجَبْتِ، بالشأوِ البعيدِ تسدُّ بابيه الظلالُ،
وَجْهًا تَلْقَى في مُحِيَّاهِ الوداعةِ والجمالُ

☆☆☆☆

مِرَاتُكَ السَّجْوَاءِ، منذ جلوتها تحت السماءِ،
ما لَاحَ فيها مثلَ ذاكِ الوجْهِ.. في ذاكِ الصفاءِ

☆☆☆☆

إن أوقدَ الليلُ العميقُ نجومَهُ في جانبيكِ
لمَاحَةَ الأضواءِ، تغمرُ بالأشعةِ ضفتيكِ

☆☆☆☆

حدتتُ عنه النُّجْمَ، والآهاتِ يقطعنَ الخريزُ،
والنجمُ يشكو، مثلما تشكو هواكِ، إلى الأثيرِ

☆☆☆☆

ناشدتُ الحَاظَ الكواكبِ، وهي تخترقُ الظلامُ،
ألا يَنْمَنَ وإن تشهَّينَ الكرى، حتى تنام..

☆☆☆☆

«أنتنَّ أسعد ما أظلل الكون، يا زُهرَ النجوم
أنتنَّ أبصرتنَّ ذاك الوجه، في الليل البهيم»

☆☆☆☆

حتى إذا ما رنَّحَ النجم الأخير سنا الصباح
فانقضَّ، تحتَ القُبَّةِ الزرقاء، مُحترقَ الجناح

☆☆☆☆

وانسابَ، في الوادي، شتات الزارعين أو الرعاة
فالجو تنبضُ في نسائمه النديَّةِ ألف أه

☆☆☆☆

أصبحتُ فوقَ المَعْبَرِ المهجور، أرقبُ منحناك..
فأبوحُ بالشكوى.. وتسكتُ عن شكاتي ضفُّتاك

☆☆☆☆

يا نهرَ (جيِّكور) الجميل، ومنتهى شكواك نورُ،
لا الشمسُ مُطفئَةٌ جُوائِي، ولا الكواكبُ والبدور

☆☆☆☆

لا الصُّبحُ يُوهِنُ لأعجَاتِ الليل والوجدِ المُثار..
في مقلتي، ولا يُهَيِّضُ الليلُ أحقادَ النَّهارِ

☆☆☆☆

ألفتنةُ السِّمراءِ تسرِّقها مياهُك بعدَ حينٍ:
الشعر.. والعينان.. والثغرُ المفلَّج.. والجبين

☆☆☆☆

فإذا الهجيرةُ أطلقتها زرقَةً الأفقِ البعيدِ
فالظلُّ مقصوصُ الجناحِ يفرُّ من عُودِ لعودِ

☆☆☆☆

والجوسقُ المستوحِدُ، المهجورُ، في غابِ النخيلِ
تأوي إليه الغداةُ السمرَاءُ لاهبَةَ الغليلِ..

☆☆☆☆

والدُّوحَةُ اللَّفَاءِ تحتبسُ البرودةَ في الظلالِ
مَهْدُ لَأَطْفَالِ الحَقُولِ، وملعبٌ رَحْبُ المَجَالِ

☆☆☆☆

سارتُ إِيكَ بطيئةَ الخَطواتِ، ذابَلَةَ الشِّفَاهُ
جاءتكَ ظمأى.. بالبِنانِ الرَّخِصِ تغتَرِفُ المِياهُ..

☆☆☆☆

كَمْ عُدْتُ مَخمورَ الفؤادِ بموعِدِ المَدِّ القَريبِ
جَذْلانَ أَقتحُمُ الظهيرةَ بالتَطَلُّعِ والوِثوبِ

☆☆☆☆

التوتُ فِوقَ الشاطِئِ الغَربِيِّ، والسَّعْفِ الصَّموتِ
لا يَجهلانِ تَنهَداتِي وهِي بَينَهُما.. تموتُ..

☆☆☆☆

والغابُ ساعَتِي الحَبيبَةَ.. من ظلالِ عَقرباها
كَمْ أَنباني أَنَّ طَرَفِي بَعَدَ حينٍ قَد يَراها!..

☆☆☆☆

واليومَ يَسقي مَدَّكَ العَاتي أواخِرَ كُلِّ جَزرِ
لا ذاكَ يَجلوها، لا هَذا بما أَرجوهُ يَجرِي..

☆☆☆☆

واليومَ إن سَكَرَ الخَريِرُ وعادَ يَحْتَضِنُ الجِرارا
لَم أَلقَ عَذارِي.. فَكيفَ الصَّبِرُ يا نَهَرَ العَذارى؟

أبوالخَصيبِ ٢٨/٤/١٩٤٦

هل كان حُبًا؟

(كتبَ الشاعرُ في هامش هذه القصيدة التي هي الأولى له في ما سيُعرف بـ «الشعر الحر»، يقول: «في هذه القصيدة محاولة جديدة في الشعر المختلف الأوزان والقوافي، وهي كأغلب الشعر الغربي (وخاصة الانكليزي) تجمع بين بحر من البحور ومجزوءاته - أي أن التفاعيل ذات النوع الواحد يختلف عددها من بيتٍ إلى آخر..»)

هل تُسمِّينَ الذي ألقى هيامي؟

أم جُنُونًا بالأمانِي، أم غرامًا؟

ما يكونُ الحُبُّ؟! نوحًا وابتسامًا؟

أم خُفوق الأضلع الحرِّي، إذا حانَ التلاقي

بينَ عَيْنينا.. فأطرقتُ فرارًا باشتياقي

عن سماءٍ ليس تسقينِي، إذا ما

جئتُها مُستسقيًا إلا أوامًا؟

هل يكونُ الحُبُّ أنِّي

بتَّ عبدًا للتمني؟!!



أم هو الحُبُّ اطراح الأمنياتُ
والتقاءِ الثَّغْرِ بالثَّغْرِ، ونسيانُ الحياة؟
واختفاءُ العَيْنِ في العَيْنِ انتشاء
كانثيالٍ عادَ يَفنى في هديرِ
أو كظلٍّ في غديرٍ

أمسٍ .. بالأمسِ التقينا في سفارِ
هاجَ ذكرى كادَ ينساها وينساني زماني،
كان يومٌ أمنتُ فيه بالأمني،
كان يومٌ فكَّ عن ساعاته غلُّ المدارِ،
ثم أمسى تحتَ أقدامِ الليالي،
داسهُ الرِّكْبُ وسارا ..

يومك المرموق .. لا يوم تقضي قبلَ عام،
فاسمعيني، فالأمني كلها أن تسمعيني:
أذكرتني فرحة اللُّقيا بصهبائي وجامي،
أن أن تحسى على نخبِ العيون!
بُتُّ أسقاها دهما
أحسبُ الشربَ اعتناقا
بيننا، هل كان حُبًّا ما أعاني؟!



العُيُونُ الحُورُ، لو أَصْبَحْنَ ظِلًّا في شرابي
جَفَّتِ الأقداحُ في أيدي صحابي
دونَ أن يخطينَ حتى بالحباب،
هيئي يا كأسُ من حافاتكِ السَّكرى مكانا
تتلاقى فيه يوماً شفتانا
في خفوقٍ والتهابِ
وابتعادٍ شاعَ في أفاقه ظلُّ اقترابِ!

أهي حُبُّ كلِّ هاتيك الأمانى؟
أم روى سكران مجنون اللغى طَلَّقَ المعاني،
غارق الألحاظ في غُورٍ من الأقداح.. ناء،
راسمٌ بالإصبعِ الحمقاء، في عَرْضِ الفضاءِ،
كلُّ أسماءِ الحبيباتِ الحِسانِ،
بالطلى أنا.. وأنا بالأغاني؟

كم تمنى قلبي المكلومُ لو لم تستجيبى
من بعيدٍ للهوى أو من قريبِ
أه لو لم تعرفي، قبل التلاقي، من حبيبِ!
أي نَغْرٍ مسَّ هاتيك الشفاها
ساكبًا شكواه أها ثم أها؟؟
غير أنني جاهلٌ معنى سؤالي عن هواها.. يا هواها!؟

أحسدُ الضوءَ الطروباً
موشكاً، مما يُلاقي، أن يذوباً
في رباطٍ أوسعَ الشَّعرِ التثاماً
السماءِ البِكْرِ من ألوانه أنا وأنا
لا يُنيلُ الطرفَ إلا ارجواناً،
ليتَ قلبي لمعةً من ذلك الضوءِ السَّجينِ.
أهو حُبُّ كلِّ هذا؟ خبِّريني!

بغداد ١٩٤٦/١١/٢٩

في السوق القديم

(١)

الليلُ، والسوقُ القديمُ
حَفَّتَتْ به الأصواتُ إلا غمغماتُ العابرينُ
وخطى الغريب وما تبتُّ الریح من نغمِ حزينُ
في ذلك الليلِ البهيمُ.
الليلُ والسوقُ القديمُ، وغمغماتُ العابرينُ،
والنورُ تعصرهُ المصابيحُ الحزاني في شحوبُ،
- مثلَ الضياءِ على الطريقِ -
من كلِّ حانوتٍ عتيقُ،
بينَ الوجوهِ الشاحباتِ، كأنَّهُ نغمٌ يذوبُ
في ذلك السوقِ القديمِ.

(٢)

كمُ طافَ قبلي من غريب،
في ذلك السوقِ الكئيبِ،
فراى، وأغمضَ مُقلتيه، وغابَ في الليلِ البهيمِ
وارتجَّ في حلقِ الدخانِ خيالُ نافذةٍ تُضاءُ،
والريحُ تعبتُ بالدخانِ...
الريحُ تعبتُ، في فتورٍ واكتابٍ، بالدُّخانِ،

وصدى غناء

ناء - يُذَكِّرُنِي بِاللَّيَالِي الْمُقَمَّرَاتِ وَبِالنَّخِيلِ،
وَأَنَا الْحَبِيبُ.. أَظَلُّ أَسْمَعُهُ وَأَحْلُمُ بِالرَّحِيلِ
فِي ذَلِكَ السُّوقِ الْقَدِيمِ.

(٣)

وَتَنَاطَرُ الضُّوْءُ الضَّئِيلُ عَلَى الْبُضَائِعِ كَالْغُبَارِ،
يُرْمِي الظَّلَالَ، كَأَنَّهَا اللَّحْنَ الرَّتِيبُ
وَيُرِيقُ أَلْوَانَ الْمَغِيبِ الْبَارِدَاتِ، عَلَى الْجِدَارِ
بَيْنَ الرَّفُوفِ الرَّازِحَاتِ كَأَنَّهَا سُحْبُ الْمَغِيبِ:
الْكُوبُ يَحْلُمُ بِالشَّرَابِ وَبِالشِّفَاهِ
وَيَدِّ تَلَوْنَهَا الظَّهِيرَةَ وَالسَّرَاجَ أَوْ النُّجُومَ.
وَلرَبِّمَا بَرَدَتْ عَلَيْهِ وَحَشَرَدَتْ فِيهِ الْحَيَاةُ،
وَلرَبِّمَا امْتَدَّتْ إِلَيْهِ يَدٌ، عَادَتْ فِي وَجُومِ،
فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ بَارِدَةِ الْكُوكَبِ وَالرِّيَّاحِ،
فِي مَخْدَعِ سَهْرِ السَّرَاجِ بِهِ، وَاطْفَاءِ الصَّبَاحِ.

(٤)

وَرَأَيْتُ، مِنْ خَلَلِ الزَّمَانِ، مَشَاهِدَ الْعَدِّ كَالظَّلَالِ
تَلْكَ الْمَنَادِيلُ الْحَيَارِي وَهِيَ تَوْمِي بِالْوَدَاعِ
أَوْ تَشْرَبُ الدَّمْعَ الثَّقِيلِ، وَمَا تَزَالُ
تَطْفُو وَتَرَسِبُ فِي خِيَالِي - هَوْمَ الْعِطْرِ الْمُضَاعِ
فِيهَا، وَخَضَّبَهَا الدَّمُ الْجَارِي:
لَوْنُ الدَّجَى وَتَوَقَّدُ النَّارِ
يَجْلُو الرِّيكَةَ ثُمَّ تُخْفِيهَا الظَّلَالَ الرَّاعِشَاتِ



وَجَهْ أَضَاءَ شَحْوَبُهُ اللَّهْبُ

يخبو ويسطع، ثمَّ يحتجبُ

ودمٌ يُغممُ وهو يقطرُ ثم يقطُرُ: مات... مات!

(٥)

الليل، والسوقُ القديم، وغممةُ العابرين،

وخطى الغريب.

وأنتِ أيتها الشموعُ ستؤقدين

في المذبحِ المجهول، في الليلِ الذي لن تعرفيه،

تلقينَ ضوءِ في ارتخاءٍ مثلَ أمساءِ الخريفِ

- حقلٌ تموجُ به السنابلُ تحتَ أضواءِ الغروبِ

تتجمَعُ الغربانُ فيه .

تلقينَ ضوءِ في ارتخاءٍ مثلَ أوراقِ الخريفِ

في ليلةِ قمرَاءٍ سكرى بالأغاني، في الجنوب.

نقرُ (الدراك) من بعيدٍ

يتهامسُ السَّعْفُ الثقيلُ، به، ويصمتُ من جديد!

(٦)

قد كانَ قلبي مثلكنَّ، وكانَ يحلمُ باللهيب،

حتى أتاحَ له الزمانُ يدًا ووجهًا في الظلامِ

نارُ الهوى ويدُ الحبيب .

ما زال يحترقُ الحياةَ، وكانَ عامٌ بعد عام

يمضي، ووجهٌ بعدَ وجهٍ، مثلما غابَ الشراعُ

بعدَ الشراع - وكانَ يحلمُ في سكون، في سكون:

بالصدر، والفم، والعُيون،



والحبّ ظلّله الخلود.. فلا لقاء ولا وداعُ
لكنه الحلمُ الطويلُ
بينَ التمطي والتثاؤبِ تحتَ أفياءِ النخيلِ.

(٧)

بالأمس كان وكانَ - ثمّ حَبَا، وانسأه الملالُ
والياس، حتى كيفَ يحلمُ بالضياءِ - فلا حنينُ
يغشى دُجَاهُ، ولا اكتئابَ، ولا بُكَاءَ، ولا أنينُ.
الصيفِ يحتضنُ الشتاءَ، ويذهبان.. وما يزال
كالمنزل المهجور تعوي في جوانبه الرياح،
كالسُّلمِ المنهار، لا ترقاه في الليلِ الكئيبِ
قدَمٌ، ولا قدَمٌ ستهبطه إذا التمعَ الصباخُ.
ما زال قلبي في المغيب
ما زال قلبي في المغيب فلا أصيل ولا مساءً،
حتى أتتْ هي والضياءُ!

(٨)

ما كانَ لي منها سوى أنا التقينا منذُ عامٍ
عندَ المساءِ، وطوّقتني تحتَ أضواءِ الطريقِ
ثمّ ارتختُ عنّي يداها وهي تهمس - والظلامُ
يحبو، وتنظفيء المصابيح الحزانى والطريقُ -
«أتسيرُ وحَدَك في الظلام؟
أتسيرُ، والأشباحُ تعترضُ السبيلَ، بلا رفيق؟»
فأجبتها والذئب يعوي من بعيدٍ، من بعيدٍ:
«أنا سوفَ أمضي باحثاً عنها، سألقاها هناك»



عند السرابِ. وسوف أبني مخدعين لنا هناك..»
قالت - ورجع ما تبوح به، الصدى «أنا من تريد!»

(٩)

«أنا من تريد. فأين تمضي؟ فيم تضرب في القفار
مثل الشريد؟ أنا الحبيبة كنتُ منك على انتظار.
أنا من تريد..» وقبّلني ثم قالت - والدموع
في مقلتيها - (غير أنك لن ترى حلم الشباب:
بيتاً على التلّ البعيد يكاد يُخفيه الضباب
لولا الأغاني، وهي تملو نصفَ وسنى، والشموع
تُلقي الضياءَ من النوافذ في ارتخاءٍ، في ارتخاءٍ!
أنا من تريدُ وسوف تبقى لا ثواءً ولا رحيل:
حُبّ إذا أعطى الكثيرَ فسوف يبخلُ بالقليل،
لا يأسَ فيه ولا رجاء.

(١٠)

أنا أيها النائى الغريب،
لك أنت وحدك، غير أنني لن أكونُ
لك أنت - اسمعها، واسمعهم ورائي يلعنون
هذا الغرام. أكاد أسمع أيها الطيف الغريب
إنّي لغيرك... بيداً أنك سوف تبقى، لن تسير!
قدماك سُمّرتا فما تتحركان، ومقلتاك
لا تبصران سوى طريقي، أيها العبدُ الأسير!
... ..
- (أنا سوف أمضي فاتركيني: سوف ألقاها هناك



عندَ السرابِ).

فطوّقتني وهي تهمسُ: (لن تسيروا!)

(١١)

(أنا من تُريدُ، فأينَ تمضي بينَ أحداقِ الذنابِ

تتلمسُ الدربَ البعيدَ؟!)

فصرختُ: (سوفَ أسيروا، ما دامَ الحنينُ إلى السرابِ

في قلبِي الظامي! دعيني أسلكُ الدربَ البعيدَ

حتى أراها في انتظاري: ليسَ أحداقُ الذنابِ

أقسى عليّ من الشموعِ

في ليلة العُرسِ التي تترقبين، ولا الظلامُ

والريحُ والأشباحُ، أقسى منك أنتِ أو الأنامُ!

أنا سوفَ أمضي!) فارّتحتُ عنّي يداها، والظلامُ

يطغى...

ولكنّي وقفْتُ وملءَ عينيّ الدموع!

أساطير

وَقَفَّ اختلافهما في الدين حائلاً بينهما وبين
السعادة... فألى هو أن يلعن الأوثان! (قصة
حب في اليونان الوثنية)

أساطيرُ من حشرجات الزمانُ
نشيج اليدِ الباليه
رواها ظلامٌ من الهاويه
وغنى بها مَيَّتان
أساطيرُ كالبيدِ، ماجِ السراب
عليها، وشعَّت بقايا شهابِ،
وأبصرتُ فيها بريقَ النُصارِ
يُلاقِي سَدَى من ظلالِ الرغيفِ،
وأبصرتُني، والستارُ الكثيفُ
يواريكَ عَنِّي فضاءَ انتظارِ
وخابتُ مني، وانتهى عاشقانُ.

☆☆☆☆

أساطيرُ مثلُ المدى القاسياتُ
تلاوينها من دمِ البائسينِ،
فكم أومضتُ في عيون الطغاة
بما حُمَلتُ من غبارِ السنينِ.

يقولون: وَحْيُ السَّمَاءِ،
فَلَوْ يَسْمَعُ الْأَنْبِيَاءُ
لَمَا تَهَقَّهَتْ ظِلْمَةُ الْهَآوِيَةِ
بِأَسْطُورَةٍ بِأَلِيهِ
تَجْرُ الْقُرُونُ
بِمَرْكَبَةٍ مِنْ لُظَى، فِي جَنُونٍ .
لُظَى كَالْجَنُونِ!

☆☆☆☆

وهذا الغرامُ اللّجوجُ
أيرتدُّ من لمسَةٍ باردةٍ ..
على إصْبَعٍ من خيالِ التَّلُوجِ،
وَأَسْطُورَةٍ بِأَيْدِيهِ؟
وعِرَافَةٍ أَطْلَقَتْ فِي الرَّمَالِ
بِقَايَا سَوَالِ
وعَيْنِينَ تَسْتَطْلِعَانِ الْغُيُوبِ
وتَسْتَشْرِفَانِ الدَّرُوبِ،
فَكَانَ ابْتِهَالٌ .. وَكَانَتْ صَلَاةُ
تُعْفَرُ وَجْهَ الْإِلَهِ
وتَحْنُو عَلَيْهِ انْطِبَاقَ الشِّفَاهِ

☆☆☆☆

تَعَالَى، فَمَا زَالَ نَجْمُ الْمَسَاءِ
يُذِيبُ السَّنَا فِي النَّهَارِ الْغَرِيقِ
وَيَغْشَى سَكُونَ الطَّرِيقِ

بلونين من ومضة وانطفاء
وهمس الهواء الثقيل
بدفء الشذى واكتئاب الغروب،
يُذَكِّرُنِي بِالرَّحِيلِ:
شِراعٌ خلال التحايا يذوبُ
وكفُّ تلوُّحٍ يا للعذابِ
تعالِي.. فما زال لونُ السُّحَابِ
حزيناً.. يُذَكِّرُنِي بِالرَّحِيلِ.

☆☆☆☆

رَحِيلِ؟!
تعالِي، تعالِي.. تُذَيِّبُ الزَّمَانَ
وساعاته في عناقٍ طويل،
وَنَصْبُجُ بِالْأَرْجَوَانِ
شِراعاً وراءَ المدى،
وننسى الغدا
على صدركِ الدافئِ العاطرِ
كتهويمَةِ الشاعرِ.
تعالِي، فملءِ الفضاءَ
صدىً هامساً باللقاء
يُوسوسُ دونَ انتهاء.

☆☆☆☆

على مقلتيك انتظاركُ بعيدُ
وشيءٌ يُريدُ



ظلالُ

يُغمغمُ في جانبيها سؤال،

وشوقٌ حزينٌ

يُريدُ اعتصارَ السّرابِ

وتمزيقَ أسطورةِ الأولينِ

فيا للعذاب!!

جناحانِ خلفَ الحجابِ.

شراعٌ...

وغمغمَةٌ بالوداع!!

٤٨/٣/٢٤



نهاية

«سأهواك حتى تجفَّ الأدمعُ في عينيَّ وتنتهار
أضلعي الواهية..» «هي»

(١)

أضيئي لغيري فكلُّ الدروبُ
سواءً على المقلّةِ الشاردة،
سأمضي إلى مَجْهَلٍ لا أُووبُ
فإنَّ عادت الجتّةُ الباردة،
فألقي على الأعينِ الخاويات
لهيب السماء -
لعلَّ الروى الخابيات،
إذا مسَّ أطرافهنَّ الضياء،
يُخبرنَّ عن ذلك المجهل:
عن الريحِ.. والغابِ.. والجدولِ
أضيئي لها يا نجوم!

(٢)

«سأهواك حتّى».. نداءً بعيدُ
تلاشتُ، على قهقهات الزمانِ
بقاياهُ.. في ظلّمةٍ.. في مكان،



وظلَّ الصدى في خيالي يُعيدُ:
 سَاهوَاكَ حَتَّى سَاهَوَى - نُوَاخُ
 كَمَا أَعُوَلْتُ فِي الظَّلَامِ الرِّيَاحِ،
 «سَاهوَاكَ حَتَّى.. سَ..» يَا لِلصدى
 أَصِيخِي إِلَى السَّاعَةِ النَّائِيَةِ:
 (سَاهوَاكَ -) مَا أَكذَبَ العَاشِقِينَ!
 «سَاهوَى..» نَعَمْ.. تصدِّقِينَ.

(٣)

ظِلَامٌ.. وَتَحْتَ الظَّلَامِ المُخِيفِ
 ذِرَاعَانِ تَسْتَقْبِلَانِ الفِضَاءَ.
 أَبْعَدَ اصْفَرَارِ الخَرِيفِ
 تُرِيدِينَ أَلَا يَجِيءُ الشِّتَاءُ
 لِقَاءً وَأَيْنَ الهَوَى يَا لِقَاءِ؟!

 عَوِيلٌ مِنَ القَرِيَةِ النَّائِيَةِ،
 وَشَيْخٌ يُنَادِي فِتَاهُ الغَرِيقِ،
 بِهَذَا الطَّرِيقِ.. وَذَاكَ الطَّرِيقِ،
 وَيَمْشِي إِلَى الضَّفَّةِ الخَالِيَةِ
 يُسَائِلُ عَنْهُ المِيَاهُ،
 وَيَضْرُخُ بِالنَّهْرِ.. يَدْعُو فِتَاهُ،
 وَمَصْبَاحَهُ الشَّاحِبُ



يُغْنِي «سُدَى» زَيْتَهُ النَّاصِبُ
«مُحَالٌ يَرَاهُ!»

ويحنو على الصفحةِ القاتمةِ
يُحَدِّقُ في لهفةٍ عارمةِ،
فما صادفتُ مُقَلَّتَاهُ
سوى وجهِ المكفهرِ الحزينِ
تُرَجِرْجُهُ رِعْشَةُ المِيَاهُ
تُغْمِغِمُ «لا لن تراه».

(٤)

أَحَقًّا نَسِيتِ اللِّقَاءَ الأَخِيرَ؟
أَحَقًّا نَسِيتِ اللِّقَاءَ...؟
أَكَانَ الهوى حُلْمَ صَيْفٍ قَصِيرِ
حَبَا في جليدِ الشتاءِ؟
حَبَا في جليدِ
وظلَّ الصدى في خيالي يُعِيدُ:
«حَبَا في جليدٍ .. حَبَا في جليدٍ» .
ويا ربَّ حلمٍ يهيلُ الزمانُ
عليه الروى والسنين التَّقالُ
فتمضي ويبقى شُحوبُ الهلالِ
يُلَوِّنُ بالأرجوانِ
نجومَ الهلالِ وصمتِ القمرِ،



ويومضُ في كلِّ حلمٍ جديدٍ .
شحوبُ الهلالِ وظلُّ الشجرِ
وطيفُ الشراعِ البعيدِ!

٤٨/٥/٢٦



غريب على الخليج

الريحُ تلهثُ بالهجيرةِ، كالجتامِ، على الأصيلِ
وعلى القلوعِ تظلُّ تطوى أو تُنشرُّ للرحيلِ
زَحَمَ الخليجِ بهنَّ مكتدحونَ جَوَابِو بحارِ
من كلِّ حافٍ نصفِ عاري.
وعلى الرمالِ، على الخليجِ
جَلَسَ الغريبُ، يُسرحُ البَصَرَ المُحيرَ في الخليجِ
ويهدُّ أعمدةَ الضياءِ بما يُصعدُّ من نشيجِ
«أعلى من العبابِ يهدرُ رَعْوُهُ ومن الضجيجِ
صَوْتُ تَفَجَّرَ في قرارةِ نفسي التكلي: عراقُ،
كالمدِّ يصعدُّ، كالسحابةِ، كالدموعِ إلى العيونِ.
الريحُ تصرُّحُ بي: عراقُ،
والموَجُّ يُعولُ بي: عراقُ، عراقُ، ليس سوى عراقُ!
البحرُ أوسعَ ما يكونُ، وأنتَ أبعدَ ما تكونُ
والبحرُ دونك يا عراقِ.

بالأمسِ، حينَ مررتُ بالمقهى، سَمِعْتُكَ يا عراقُ...
وكنْتَ دَوْرَةَ أسطوانةِ
هي دورةُ الأفلاكِ من عُمرِي، تُكوِّرُ لي زَمَانَهُ
في لحظتينِ من الزمانِ، وإنْ تَكُنْ فَقَدَتْ مكانَهُ.



هي وَجْهٌ أُمِّي فِي الظَّلامِ

وصوتُها، ينزلقانِ مع الرُّوى حتى أنامُ،

وهي النخيلُ أخافُ منه إذا ادلهمَّ مع الغروبِ

فاكتنظَّ بالأشباحِ تخطفُ كلَّ طفلٍ لا يؤوبُ

من الدروبِ،

وهي المفليةُ العجوزُ وما تُوشوشُ عن «حزام»^(١)

وكيفَ شقَّ القبرُ عنه أمامَ «عفراء» الجميلةُ

فاحتازها.. إلا جديلهُ.

زَهراءُ أنتِ.. أتذكِرينِ

تَنورِنا الوهاجَ تَرحمُهُ أكفُّ المصطلين؟

وحديثَ عَمَّتِي الخفيضِ عن الملوكِ الغابرين؟

ووراءَ بابِ كالقضاءِ

قد أوصدتهُ على النساءِ

أيدٍ تُطاعُ بما تشاءُ، لأنها أيدي رجالٍ.

كانَ الرجالُ يُعربِدونَ وَيَسْمرونَ بلا كلالٍ.

أفتذكِرين؟ أتذكِرين؟

سُعداءَ كُنَّا قانعينَ

بذلكَ القَصصِ الحزينِ لأنَّه قَصصُ النساءِ.

حَسُدُ من الحَيواتِ والأزمانِ، كُنَّا عُنفوانهُ،

كُنَّا مَداريهُ اللَّذينِ وَجَدتُ بينهما كيانهُ.

أفليسَ ذاكَ سوى هِباء؟

حُلْمٌ ودورَةٌ اسطوانهُ؟

(١) هكذا أصبح اسم الشاعر العاشق عروة بن حزام عند العامة الذين يروون قصة حبه لعفراء، وموته، ويرددون معاني قصيدته بشعر عامي.



إِنْ كَانَ هَذَا كُلُّ مَا يَبْقَى فَأَيْنَ هُوَ الْعَزَاءُ؟
أَحْبَبْتُ فِيكَ عِرَاقَ رُوحِي أَوْ حَبَبْتُكَ أَنْتِ فِيهِ،
يَا أَنْتَمَا، مَصْبَاحَ رُوحِي أَنْتَمَا - وَأَتَى الْمَسَاءَ

وَاللَّيْلُ أَطْبَقَ فَلتَشَعَّ فِي دُجَاهُ فَلَا آتِيهِ.
لَوْ جِئْتُ فِي الْبَلَدِ الْغَرِيبِ إِلَيَّ مَا كَمَلْتُ الْلِقَاءَ !
الْمُلْتَقَى بِكَ وَالْعِرَاقُ عَلَى يَدَيَّ... هُوَ الْلِقَاءُ !
شَوْقٌ يَخْضُّ دَمِي إِلَيْهِ، كَأَنَّ كُلَّ دَمِي اشْتَهَاءٌ،
جُوعٌ إِلَيْهِ... كَجُوعِ كُلِّ دَمٍ الْغَرِيقِ إِلَى الْهَوَاءِ.
شَوْقُ الْجَنِينِ إِذَا اشْرَأَبَ مِنَ الظَّلَامِ إِلَى الْوِلَادَةِ !
إِنِّي لِأَعْجَبُ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَخُونَ الْخَائِنُونَ !
أَيَخُونُ إِنْسَانٌ بِلَادَهُ؟
إِنْ خَانَ مَعْنَى أَنْ يَكُونَ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ؟

الشَّمْسُ أَجْمَلُ فِي بِلَادِي مِنْ سِوَاهَا، وَالظَّلَامُ
- حَتَّى الظَّلَامُ - هُنَاكَ أَجْمَلُ، فَهُوَ يَحْتَضِنُ الْعِرَاقَ.
وَاحْسِرْتَاهُ، مَتَى أَنَامُ
فَأَحْسُ أَنْ عَلَى الْوَسَادَةِ
مِنْ لَيْلِكَ الصَّيْفِيِّ فِيهِ عِطْرُكَ يَا عِرَاقُ؟
بَيْنَ الْقُرَى الْمُتَهَيِّبَاتِ حُطَايَ وَالْمَدِينِ الْغَرِيبَةِ
عَنَيْتُ تُرْبَتَكَ الْحَبِيبَةَ،
وَحَمَلْتَهَا، فَأَنَا الْمَسِيحُ يَجْرُ فِي الْمَنْفَى صَلِيبَهُ،
فَسَمِعْتُ وَقَعَ خَطِي الْجِياعِ تَسِيرُ، تَدْمَى مِنْ عَثَارِ



فتذُرُّ في عيني، منك ومن مناسمها، غبار.
 ما زلتُ أضربُ، مُتربِّبَ القدمين أشعثَ، في الدروبِ
 تحتَ الشَّموسِ الأجنبيَّةِ،
 متخافقَ الأطمارِ، أبسُطُ بالسؤالِ يدًا نديَّةَ
 صفراءَ من دُلِّ وحُمَيَّ: دُلِّ شَحَاذِ غريبِ
 بينَ العيونِ الأجنبيَّةِ،
 بينَ احتقارِ، وانتهاهِرِ، وازورارِ... أو «حَطِيَّة»^(١)
 والموتُ أهونُ من «حَطِيَّة»،
 من ذلكَ الإشفاقِ تعصرهُ العيونُ الأجنبيَّةُ
 قطراتِ ماءٍ... معدنيَّةُ!
 فلتنظفي، يا أنتِ، يا قطراتُ، يا دمُ، يا... نقودُ،
 يا ريحُ، يا إبرًا تخيِّطُ لي الشراعَ - متى أعودُ
 إلى العراقِ؟ متى أعودُ؟
 يا لمعةَ الأمواجِ رُحهنَّ مجدافُ يروُدُ
 بيَ الخليجِ، ويا كواكبهُ الكبيرةَ... يا نقودُ!
 ☆☆☆☆
 ليتَ السفائنَ لا تُقااضي راكبيها عن سِفارِ
 أوليتَ أنَ الأرضَ كالأفقِ العريضِ، بلا بحارِ!
 ما زلتُ أحسبُ يا نقودُ، أعدكُنَّ وأستزيدُ،
 ما زلتُ أوقدُ بالتماعتكُنَّ نافذتي وبابي
 في الضفَّةِ الأخرى هناكَ فحدثيني يا نقودُ
 متى أعودُ؟ متى أعودُ؟

(١) كلمة إشفاق في اللهجة العراقية (والكويتية) الدارجة.





أُتْرَاهُ يَأْزِفُ، قَبْلَ مَوْتِي، ذَلِكَ الْيَوْمَ السَّعِيدُ؟
سَأَفِيقُ فِي ذَاكَ الصَّبَاحِ، وَفِي السَّمَاءِ مِنَ السَّحَابِ
كَسْرٌ، وَفِي النِّسْمَاتِ بَرْدٌ مُشَبِّعٌ بَعُطُورِ آبٍ،
وَأَزِيحُ بِالثُّوبَاءِ بَقِيَا مِنْ نُعَاسِي كَالْحِجَابِ
مِنَ الْحَرِيرِ، يَشْفُ عَمَّا لَا يَبِينُ وَمَا يَبِينُ:
عَمَّا نَسِيْتُ وَكَدْتُ لَا أَنْسَى، وَشَكَّ فِي يَقِينِ.

وَيُضِيءُ لِي - وَأَنَا أَمُدُّ يَدِي لِأَلْبَسَ مِنْ ثِيَابِي -
مَا كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْهُ فِي عَنَمَاتِ نَفْسِي مِنْ جَوَابِ
لِمَ يَمَلَأُ الْفَرْحُ الْخَفِيُّ شِعَابَ نَفْسِي كَالضَّبَابِ؟
الْيَوْمَ - وَانْدَفَقَ السَّرُورُ عَلَيَّ يَفْجَأُنِي - أَعُودُ !

☆☆☆☆

وَاحْسِرْتَاهُ... فَلَنْ أَعُودَ إِلَى الْعِرَاقِ !

وَهَلْ يَعُودُ

مَنْ كَانَ تُعَوِّزُهُ النِّقُودُ؟ وَكَيْفَ تُدَخِّرُ النِّقُودُ
وَأَنْتَ تَأْكُلُ إِذْ تَجُوعُ؟ وَأَنْتَ تُنْفِقُ مَا يَجُودُ
بِهِ الْكِرَامُ، عَلَى الطَّعَامِ؟

لَتَبْكَيْنَ عَلَى الْعِرَاقِ

فَمَا لَدَيْكَ سِوَى الدَّمُوعِ

وَسِوَى انْتِظَارِكَ، دُونَ جَدْوَى، لِلرِّيَاحِ وَاللَّقْلُوعِ !

(الكويت ١٩٥٣)



أغنية في شهر آب

تموّز يموتُ على الأفقِ
وتغورُ دماهُ مع الشفقِ
في الكهفِ المُعتمِ والظلماءِ
نقّالة إسعافٍ سوداءِ
وكأنّ الليلَ قطعُ نساءٍ:
كُحلُّ وعباءاتُ سودُ
الليلُ خباءُ
الليلُ نهارُ مسدودُ.
ناديتُ مُربيّةَ الأطفلِ الزنجيّة:
الليلُ أتى يا مرجانهُ
فأضيئي النورَ. وماذا؟! إني جوعانهُ
و.. نسيّتُ - أمّا من أغنيتهُ؟
بِمَ يهدّرُ هذا المذيعُ؟!
في لندنِ موسيقى جازٍ، يا مرجانه
فإليها... إني فرحانهُ
والجازُ من الدمِ إيقاعُ

☆☆☆☆

تموّز يموتُ ومرجانهُ
كالغابةِ تبيضُ بردانه...

☆☆☆☆

وتقول، ويخذلها النَّفسُ:

«الليلُ»، الخنزير الشرسُ

«الليلُ شقاء!»

مرجانةٌ.. هل قرعَ الجرسُ؟

فتقول، ويخذلها النَّفسُ

«في الباب نساء».

وتُعدُّ القهوةَ مرجانهُ

☆☆☆☆

وعلى الأكتاف البيض فراء:

الذئبُ يدتُرُ إنسانهُ

وعلى الأتداء من النمرِ

شرق يتسلل، ملء الغاب، من الشجرِ

والليلُ يطولُ مع السمرِ

الليلُ كتثورٍ - من أشباح البشرِ

حُيْرٌ يتنشقُ نيرانهُ

والضيقةُ تأكل جوعانهُ

من هذا الزاد. ومرجانهُ

كالغابة تبيضُ بردانهُ

والضيقة تضحكُ وهي تقول: «خطيبُ سعاد

جافاها، وانطوتِ الخطبةُ!

الكلبُ تنكّرُ للكلبةِ...»

تموز يموت بدون معاد

والبردُ يئنُّ من القمرِ

فنلودُ بمدفأةٍ من أعراضِ البشرِ!

☆☆☆☆

سيعودُ إذا انتصفَ الليلُ،

زوجي سيعودُ إلى الدارِ

من بيتِ صديقٍ أو بارٍ

لا شوقٌ يُعلِّقُ بالرقاصِ ولا بالعقربِ أبصاري

لا آهةٌ - من رهبٍ - تملو:

من رنةٍ مفتاحٍ في البابِ

وضياءٍ من شيقٍ ينسابُ

كالماءِ المالحِ أشربه حتى تنفطرُ أغواري !

ولقد يتأخرُ أو يأتي

قبلَ الميعادِ إلى البيتِ

لكن سيعود

لا لومٍ عليه، فقد أعطى ما أطلبُ منه، ولا عتَبُ !

خَدَمٌ، ورياشُ ملءِ البيتِ، وائِهَةٌ. دنيا، ونقود

« .. ماسٌ، وبقيتُها ذهبٌ:

وهديّةٌ والدها؟! الله هديةٌ والدها .. عَجَبُ:

صَيَّادٌ بين يديه شِباك

تتلامحُ ملأى بالأسماك

ذهبٌ وزعانفُ من فضه

ولآليءٌ تُوهَمُ أن هياكلها تنبُ

وبأنّ لصاندها خضه !»

تموز يموت ومرجانُه

تتعوّذُ، من عُقَدِ السِّحْرِ
والليلِ الراكِدِ، بالخضُرِ
والليلِ يُطْفِئُ شَطَانَهُ
والضيفةُ تقبَعُ بردانَهُ
وفِرَاءُ الذئبِ تُغْطِيهَا
وتطفأتِ النيرانُ اللاتي كانت بالدم تُذَكِّيها.

☆☆☆☆

ليلٌ وجليدٌ
يتساقط عبرهما صوتٌ، رناتٌ حديد
وعواء ذئبٍ يُخْفِيهَا...
الصوتُ بعيدٌ،
والضيفةُ مثلي بردانَهُ.

☆☆☆☆

فتعالَ وشاركني بردي
بالله تعال...
يا زوجي، ها إني وحدي
- والضيفة مثلي بردانهُ -
فتعالَ، تعال
فأمامكَ وحدكَ أقدر أن أغتابَ الناسَ بلا استثناء
بالله تعالُ
فالناسُ كثيرٌ... والظلماءُ
نقالةٌ مؤتى سائقها أعمى، وفؤادك جبانهُ!

(١٩٥٦)

- ٥٧ -

المخبر

أنا ما تشاءُ: أنا الحقيزُ
صباغُ أحدىة الغُزاةِ، وبائعُ الدمِ والضميرِ
للظالمين. أنا الغرابُ
يقتات من جثث الفِراخِ. أنا الدمار، أنا الخرابُ !
شَفَّةُ البغيِّ أَعْفُ من قلبي، وأجنحة الذبابِ
أنقى وأدفاً من يدي... أنا الحقيزُ !
لكنَّ لي من مُقلتي - إذا تتبَّعتا حُطاكُ
وتَقَرَّتَا قسماات وجهكِ وارتعاشِك - إبرتينِ
ستنسجان لك الشُّراكُ
وحواشي الكفنِ المُلطَّخِ بالماءِ، وجمرتينِ
تُرَوِّعان رِواك إن لم تُحرقاك !
وتحولُ دونهما ودونك بين كفيِّ الجريده
فتندُّ أهتك المديده
وتقول: «أصبح لا يراني»... بيْد أنَّ دمي يراكُ
إنِّي أحسُّكَ في الهواءِ وفي عيون القارئِ.
لِمَ يقرأونَ: لأنَّ تونسَ تستفيقُ على النضالِ؟
ولأنَّ ثِوارَ الجزائرِ ينسجون من الرمالِ
ومن العواصفِ والسيولِ ومن لُهاثِ الجائعينِ
كَفَنَ الطُغاةِ؟ وما تزالُ قذائف المتطوعينِ

يَصْفِرْنَ فِي غَسِقِ الْقنَالِ؟
لِمَ يقرأونَ وَيَنظرونَ إِلَيَّ حِيناً بَعْدَ حِينٍ
كَالشامتين؟
سيعلمونَ من الذي هو في ضلالٍ
ولأينا صدأ القيود... لأينا صدأ القيود...
لأينا...

نهضَ الحقير
وسأقتفيه فما يَفِرُّ، سأقتفيه إلى السعير.
أنا ما تشاء: أنا اللئيم، أنا الغبي، أنا الحقودُ
لكنما أنا ما أريد: أنا القوي، أنا القدير.
أنا حامل الأغلال في نفسي، أقيدُ مَنْ أشاءُ
بمثلهنَّ من الحديد، وأستبيح من الخدود
ومن الجباه أعزهنَّ. أنا المصير، أنا القضاء.
الحقدُ كالتنورِ في: إذا تلهَّبَ بالوقودِ
- الحبرُ والقرطاسُ - أطفأ في وجوهِ الأمهاتِ
تنورهنَّ، وأوقفَ الدمَ عن نُديِ المرضعاتِ.
في البدءِ كان يطفئُ بي شَبْحُ يُقال له: الضميرُ
أنا منه مثل اللصِّ يسمعُ وَقَعَ أَقدامِ الخفيرِ.
شَبْحُ تنفَّسَ ثم ماتَ
واللصُّ عادَ هو الخفيرِ.
في البدءِ لم أكن في الصراعِ سوى أجير
كالبايعاتِ حليبيهنَّ، كما تُوجِّرُ - للبكاءِ

ولندبِ مَوْتِي غيرِ موتاهنَّ - في الھندِ النساءِ .
قد أمعنَ الباكي على مضضٍ، فعادَ هو البُكاءُ !

☆☆☆☆

الخَوْفُ والدمُ والصَّغارُ. فأئِي شيءٍ أرتجيه؟
فعلی يديّ دمٌ وفي أذنيّ وهُوَهِةُ الدماءِ
وبمقلتيّ دمٌ، وللمدِّ في فمي طعمٌ كريحه !
أثقلُ ضميرَكَ بالأثامِ فلا يُحاسبُكَ الضميرُ
وانسَ الجريمةَ بالجريمةِ والضحيَّةَ بالضحايا .
لا تمسحِ الدمَ عن يديكِ فلا تراه وتستطيرُ
لفرطِ رُعبِكَ أو لفرطِ أساكِ... واحتضنِ الخطايا
بأشدِّ ما وسِعَ احتضانُ تنجٍ من وَخزِ الخطايا .

☆☆☆☆

قُوتِي وقُوتُ بنيّ لحمٌ آدميٌّ أو عظام
فليحقدنَّ عليّ كالحممِ الأنامِ
كي لا يكونوا إخوةً لي آنذاك، ولا أكونُ
وريثَ قابيلِ اللعينِ سيسألونُ
عن القتلِ فلا أقولُ:
«أنا الموكَّلُ، ويلكمُ بأخي؟» فإنَّ المخبرينُ
بالآخرينِ مُوكَّلون !

سُحِقًا لهذا الكونِ أجمعَ وليحلَّ به الدمارُ !
ما لي وما للناسِ؟ لستُ أبا لكلِّ الجائعينِ
وأريدُ أن أروى وأشبعَ من طَوَى كالأخريينِ



فلينزلوا بي ما استطاعوا من سباب واحتقار
لي حَفْنَةُ القمح التي بيدي ودانية السنين
- حَمْسٌ وأكثر... أو أقل - هي الربيع من الحياة
فليعلموا هُم بالغدِ الموهوم يبعثُ في الفلاة
روحَ النماء، وبالبيادر وانتصار الكادحين
فليعلموا إن كانت الأحلام تُشبعُ من جوع.
إن سَاحيا لا رجاءَ ولا اشتياقَ ولا نزوع،
لا شيءَ غيرَ الرعبِ والقلقِ المُضِّ على المصيرِ
ساءَ المصيرُ !
رباهُ إنَّ الموتَ أهونُ من تَرْقُبُهُ المرئِ
ساءَ المصيرُ:
لِمَ كنتُ أحقرُ ما يكون عليه إنسانُ حقيرُ؟



في المغرب العربي

قرأتُ اسمي على صخره
هنا، في وحشة الصحراء،
على أجرة حمراء،
على قبرٍ. فكيف يحسُّ انسانٌ يرى قبره؟
يراهُ وإنه ليحارُّ فيه:
أحيُّ هو أم ميتٌ؟ فما يكفيه
أن يلقى له ظلًّا على الرملِ،
كمئذنةٌ مُعَفَّرَةٌ
كمقبرةٍ
كمجدٍ زالٍ
كمئذنةٌ تردَّدَ فوقها اسمُ الله
وحُطَّ اسمٌ له فيها،
وكان محمدٌ نَقَشًا على أجرةٍ خضراءِ
يزهو في أعاليها...
فأمسى تآكل الغبراءِ
والنيرانِ، من معناه،
ويركله الغزاةُ بلا حذاءِ
بلا قَدَمٍ
وتنزفُ منه، دون دمِ،

جراحٌ دونما ألمٍ -

فقد مات...

ومُتتنا فيه، من مَوْتِي ومن أحياء.

فنحنُ جميعُنا أموات

أنا ومحمد والله.

وهذا قبرُنا: أنقاض مَدَنَةٍ مَعْفَرَةٍ

عليها يُكْتَبُ اسم محمدٍ والله،

على كِسْرٍ مبعثرةٍ

على الأجرِّ والفخَّارِ.

فيا قبرَ الإله، على النهار

ظلُّ لألف حربةٍ وفيلٌ

ولون أبرههُ

وما عكسته منه يدُ الدليل،

والكعبة المحزونة المشوَّههُ.

قرأتُ اسمي عل صخره،

على قبرينِ بينهما مدى أجيالٍ

يجعل هذه الحفره

تضمُّ اثنين: جدّ أبي - ومحضُ رمالٍ

ومحضُ نثارٍ سوداء منه، استنزلا قبره -

وإيَّاي، ابنَه في موته والمضغة الصلصال.

☆☆☆☆

وكانَ يطوف من جدِّي

مع المدّ

هتافُ يملأ الشيطانَ: «يا ودياننا ثوري !
ويا هذا الدُمُّ الباقي على الأجيالُ
يا إرثَ الجماهيرِ،
تشظُّ الآنَ واسحقُ هذه الأغلالُ
وكالزلالُ
هُرُّ النَّيْرِ، أو فاسحقه واسحقنا مع النيرِ.»
وكانَ إلهنا يختال
بين عصائب الأبطال،
من زندي إلى زندي
ومن بندٍ إلى بندٍ



إلهُ الكعبةِ الجبَّارِ،
تدرِّعُ أمسٍ في ذي قارٍ بدرعٍ من دمِ النعمانِ في حافاتِها آثارُ.
إلهُ محمدٍ وإلهُ آبائي من العربِ،
ترأى في جبالِ الريفِ يحمل رايةَ الثوارِ،
وفي يافا رآه القومُ يبكي في بقايا دارِ.
وأبصرناه يهبطُ أرضنا يوماً من السَّحْبِ:
جريحاً كانَ في أحيائنا يمشي ويستجدي،
فلم نضمِّدْ له جرحاً
ولا ضحَى

له منَّا بغيرِ الخبزِ والأنعامِ من عبْدٍ !



وأصواتُ المصلِّينَ ارتعاشُ من مراثيهِ



إذا سجدوا ينزّ دَمٌ
 فيسرُع بالضمادِ فَمٌ:
 بآياتٍ يغضُّ الجرحَ منها خيرَ ما فيه،
 تُداوي خوفنا من علمنا أننا سنُحييه
 إذا ما هَلَلَّ الثَوْرُ مِنَّا: «نحْنُ نفديه!»

☆☆☆☆

أغارُ، من الظلام على قرانا
 فأحرقهنَّ، سربُّ من جرادِ
 كأنَّ مياه دجلة، حيث ولى،
 تنمَّ عليه بالدم والمدادِ.
 أليس هو الذي فَجَأَ الحُبالي
 قضاة، فما ولدنَّ سوى رمادِ؟
 وأنعلَ، بالأهلة في بقايا
 ماذنّها، سنابك من جوادِ؟
 وجاءَ الشام يسحب في تراها
 خُطى أسدين جاعا في الفؤادِ؟
 فأطعم أجوعَ الأسدِين عيسى
 وبِلِّ صداةً من ماء العِمادِ
 وعضَّ نبيِّ مكة... فالصحارى
 وكل الشرق ينفرُّ للجهادِ؟

☆☆☆☆

أعادَ اليومَ، كي يقتصَّ من أنا دحرناهُ؟
 وإنَّ الله باقٍ في قرانا، ما قتلناهُ؟



ولا من جوعنا يوماً أكلناهُ؟

ولا بالمال بعناه .

كما باعوا

إلهمُّ الذي صنعوه من ذهبٍ كدحناهُ؟

كما أكلوه إذ جاعوا -

إلهم الذي من خبزنا الدامي جبلناهُ؟

وفي باريس تتخذ البغايا

وسائدهنَّ من ألمِ المسيحِ

وباتَ العقمُ يزرعُ في حشاها

فمُ التنين: يشهق بالفحيحِ

ويقذفُ من حديدٍ في جمانا

جحافل كالقوارس، دون روحِ

تجدُّ وراء مكة في الصياصي

أقمناها، ويثرب في السّفوحِ

☆☆☆☆

قرأتُ اسمي على صخره...

وبينَ اسمين في الصحراءِ

تنفّسَ عالمُ الأحياءِ

كما يجري دُمُ الأعراقِ بين النبخِ والنبضِ

ومن أجرّةِ حمراءِ ماثلةٍ على حُفره

أضياءً ملامحَ الأرضِ

بلا ومُضِ

دُمُ فيها، فسماها



لتأخذَ منه معناها
لأعرفَ أنها أرضي
لأعرفَ أنها بعضي
لأعرفَ أنها ماضيّ، لا أحياءُ لولاها
وأني ميّتٌ لولاه، أمشي بين موتاه.
أذاك الصاحب المكتظّ بالرايات واديننا؟
أهذا لونُ ماضيّنا
تَضوُّاً من كوى «الحمراء»
ومن أجرّة خضراءٍ
عليها تكتب اسمَ الله بُقيا من دمِ فينا؟
أنبُرُّ من أذانِ الفجر؟ أم تكبيرة الثوّارِ
تعلو من صياصينا...؟
تمخّضتِ القبورُ لتتشرّ الموتى ملايينا
وهبَّ محمدٌ وإلهه العربيّ والأنصارُ:
إنّ إلهنا فينا.



جيكور والمدينة

وتلتفُ حَوْلِي دروبُ المدينة:
حبالاً من الطين يمضُغْنَ قلبي
ويُعطينَ، عن جمرةٍ فيه، طينه،
ويُحرقنَ جيكورَ في قاعِ روحي
ويزرعنَ فيها رمادَ الضغينة.
دروبٌ تقولُ الأساطيرُ عنها
على موقِدٍ نام: ما عادَ منها
ولا عادَ من ضفّةِ الموتِ سارٍ،
كأنَّ الصدى والسكينةُ
جناحا أبي الهولِ فيها، جناحانِ من صخرةٍ فيها دفينه.
فمن يَفْجُرُ الماءَ منها عيوناً لتُبني قُرانا عليها؟
ومن يُرجعُ اللهَ يوماً إليها؟

☆☆☆☆

وفي ليلِ فردوسها المستعادِ،
إذا عرَّشَ الصخرُ فيها غصونه
ورصَّ المصابيحَ تَفَاحِ نارٍ
ومدَّ الحوانيتَ أوراقَ تينه،
فمن يُشعلُ الحَبَّ في كلِّ دربٍ وفي كلِّ مقهى وفي كلِّ دار؟
ومن يُرجعُ المِخلَبَ الآدميَّ يداً يمسحُ الطفلُ فيها جبينه؟

وتخضّل من لمسها، ألوهية القلب فيها، عروق الحجار؟

وبين الضحى وانتصافِ النهار:

إذا سبّحت باسم ربّ المدينة

- بصوتِ العصافيرِ في سدرّة يخلق الله منها قلوبَ الصغار -

رحى معدنٍ في أكفّ التجار

لهاما لأسماك جيكور من لمعةٍ واسمها من معانٍ كثار،

فمن يسمّع الروح؟ من يبسطُ الظلّ في لافحٍ من هجير النضار؟

ومن يهتدي في بحار الجليد إليها فلا يستبيح السفينه؟

وجيكور، من غلقَ الدورَ فيها - وجاء ابنها يطرقُ

الباب - دونه؟

ومن حوّلَ الدربَ عنها... فمن حيثُ دارَ اشْرأبتُ إليه المدينة؟

وجيكور خضراءٍ مسّ الأصيلُ ذرى النخلِ فيها

بشمسٍ حزينه.

يمدُّ الكرى لي طريقاً إليها:

من القلب يمتدُّ، عبْرَ الدهاليز عبْرَ الدجى والقلاع الحصينه...

وقد نامَ في بابلَ الراقصون

ونامَ الحديدُ الذي يشحذونه،

وغشى، على أعين الخازنين، لهاثُ النضار الذي يحرسونه:

حصادَ المجاعاتِ في جنتيها.

رحى من لظى مرّ دربي عليها،

وكرمٌ، عساليجه العاقراتِ شرايينُ تموزَ عبرَ المدينة،

شرايينُ في كل دارٍ وسجنٍ ومقهى

وفي كل مستشفيات المجانين...

يُطلعنَ أزهارهنَّ الهجينه:

مصايبح لم يسرجُ الزيتُ فيها وتمسسه نار
وفي كل مقهى وسجنٍ ومبغى ودار:
«دمي ذلك الماء، هل تشربونه؟
ولحمي هو الخبز، لو تأكلونه!»
وتموز تبكيه لأه الحزينه.

☆☆☆☆

ترفعُ بالنواح صوتها مع السحر
ترفعُ بالنواح صوتها، كم تنهدَ الشجرُ
تقولُ: «يا قطارُ، يا قدرُ
قتلتَ - إذ قتلتَه - الربيعَ والمطرُ».
وتنشرُ (الزمانُ) و(الحوادثُ) الخبرُ^(١).
و لأه تستغيثُ بالمضمدِ الحفرُ
أن يرجعَ ابنها: يديه، مقلتيه، أيما أثرُ!
وتُرسَلُ النواحُ: «يا سنابلَ القمرُ
دمُ ابني الزجاجُ في عوقه انفجر..
فكهرباءُ دارنا أصابت الحجرُ
وصكّه الجدارُ، خضّه، رماه لمحّة البصرُ
أرادَ أن يُنيرَ، أن يُبَدِّدَ الظلامَ... فاندحرُ».
وتُرسَلُ النواحُ...
ثم يصمتُ الوترُ.

☆☆☆☆

(١) الزمان، والحوادث صحيفتان عراقيتان كانتا تصدران في بغداد على أيام كتابة القصيدة.

وجيكورُ خضراءَ

مسَّ الأصيلُ

ذُرَى النخلِ فيها

بشمسٍ حزينه.

ودربي إليها كومضِ البروقِ،

بدا واختفى ثم عادَ الضياءُ فأذكاهُ حتى أنارَ المدينةُ

وعرَى يدي من وراء الضَّمادِ كأنَّ الجراحاتِ فيها حروق.

وجيكور من دونها قامَ سورُ

وبوابةُ

واحتوتها سكينه.

فَمَنْ يَخْرُقُ السُّورَ؟ مَنْ يَفْتَحُ البابَ؟ يُدْمِي عَلَى كُلِّ قَفْلٍ يَمِينَهُ؟

وَيُمْنَايَ: لَا مِخْلَبُ لِلصَّرَاعِ فَاسْعَى بِهَا فِي دُرُوبِ الْمَدِينَةِ

وَلَا قَبْضَةُ لِابْتِعَاثِ الْحَيَاةِ مِنَ الطِّينِ...

لكنها مَحْضُ طِينِهِ.

وجيكورُ من دونها قامَ سورُ

وبوابةُ

واحتوتها سكينه.

العودة لـجيكور

على جوادِ الحُلمِ الأشهبِ
أسريتُ عبْرَ التلالِ
أهزبُ منها، من ذراها الطوالِ،
من سوقها المكتظَّ بالبائعينِ،
من صبحها المتعبِ
من ليلها النابحِ والعايرينِ،
من نورها الغيبيِّ،
من ربِّها المغسولِ بالخمرِ،
من عارها المخبوءِ بالرَّهرِ،
من موتها الساري على النهرِ
يمشي على أمواجه الغافية.
أواه لو يستيقظ الماءُ فيه،
لو كانت العذراءُ من واريه،
لو أنَّ شمس المغربِ الداميه
تبتلُّ في شطّيه أو تُشرقُ،
لو أنَّ أغصانَ الدجى تُورقُ
أو يُوصدُ الماخورُ عن داخله.

☆☆☆☆

على جوادِ الحُلمِ الأشهبِ

وتحت شمسِ المشرقِ الأخضرِ
في صيفِ جيكورِ السَّخِّي الثري
أسريت أطوي دربي الغالي
بين الندى والزهر والماء^(١)
أبحثُ في الآفاقِ عن كوكبِ^(٢)
عن مولد للروح تحت السماء
عن منبعٍ يروي لهيبِ الظلماء
عن منزلٍ للسائحِ المتعبِ.

☆☆☆☆

جيكور، جيكور: أين الخبزُ والماء؟
الليلُ وافى وقد نامَ الأدلاء؟
والركبُ سهرانٌ من جوعٍ ومن عطشٍ
والريحُ صرٌّ، وكلّ الأفقِ أصداءً.
بيداءً ما في مداها ما يبينُ به
دربٌ لنا وسماءُ الليلِ عميأً
جيكور مدِّي لنا باباً فندخلُهُ
أو سامرينا بنجمٍ فيه أضواءٌ!

☆☆☆☆

مَنْ الذي يسمعُ أشعاري؟
فإنَّ صمتَ الموتِ في داري
والليلَ في ناري.
من الذي يحملُ عبءَ الصليبِ

(١) كان المسيح، في عهده، هو الذي مشى على الماء.
(٢) وبزغ كوكبٌ عرف منه المجوس أن المخلص قد ولد.

في ذلك الليلِ الطويلِ الرهيبِ؟
من الذي يبكي ومن يستجيب
للجائعِ العاري؟
من يُنزلِ المصلوبَ عن لوحه؟

من يطرد العقبان عن جُرحه؟
من يرفع الظلماء عن صُبحه؟
ويُبدلِ الأشواك بالغار^(١)؟
أواه يا جيكور لو تسمعين!
أواه يا جيكور... لو توجدين!
لو تُنجبين الروح، لو تُجهضين
كي يُبصر الساري
نجمًا يُضيءُ الليلَ للتائهين.

☆☆☆☆☆

نَزْعُ ولا موتُ،
نُطْقُ ولا صوتُ،
طَلْقُ ولا ميلادُ.
مَنْ يصلبُ الشاعرَ في بغداد؟
من يشتري كَفِيهِ أو مقلتيه؟
من يجعلُ الأكليلَ شوكًا عليه؟
جيكور يا جيكورُ
شدتْ خيوطُ النورِ

(١) وألبسوا المسيح تاجًا من الشوك... سخرية به.

أرجوحة الصُّبحِ .
فأولمي للطيور
والنملِ من جُرحي .



هذا طعامي أيها الجائعون
هذي دموعي أيها البائسون

هذا دُعائي أيها العابدون:
أن يقذفَ البُرْكانُ نيرانه،
أن يُسلَ الفراتُ طوفانَه
كي تُشرقَ الظُّلمه،
كي نعرفَ الرحمه،
جيكور يا جيكور
شَدَّتْ خيوطُ النور
أرجوحة الصُّبحِ
فأولمي للطيور
والنملِ من جُرحي !



هذا جِرائي^(١) حاكت العنكبوتُ
خَيْطاً إلى بابِه
يهدي إليَّ الناسِ، إنِّي أموت

(١) حراء، الغار الذي هبط فيه الوحي على النبي محمد ﷺ. حين هاجر النبي إلى المدينة اختبأ - والمشركون جادون في إثره - في غار حاكت العنكبوت بيتها على بابه فبدا مهجوراً، ولم يهتد المشركون إلى مخبأ محمد ﷺ.

والنورُ في غابِه
يُلقِي دنائيرَ الزمانِ البخيلِ
من شُرْفَةٍ في سعفاتِ النخيلِ.
جيكور، يا جيكور: خلِّ وماءً
ينساب من قلبي،
من جُرْحِي الواري،
من كلِّ أغواري.
أواه يا شعبي...

جيكور، يا جيكور هل تسمعون؟
فلتُفتَحْ الأبوابُ للقاتحين
ولتجمعي أطفالكِ اللاعبين
في ساحة القرية. هذا العشاء.
هذا حصادُ السنين:
الماءُ حَمْرٌ، والخوابي غذاءٌ^(١)
هذا ربيع الوباء.

☆☆☆☆

أقوى من الأسوار هذا الجوادُ
«أقوى جوادِ الحُلمِ الأشهبِ»
لأنَّ الحديدُ المغتذي بالحداد
وانخذلَ الموكبُ.

(١) وأحال المسبخُ الماءَ إلى خمر فشرَبَ الحاضرون.

جيكور، ماضيكَ عاذاً.

.....

هذا صياحُ الديك: ذابَ الرقاد

وعُدتُ من معراجي الأكبر:

الشمس أمُّ السنبيل الأخضرِ

خلفَ المباني، رغيْفُ.

لكنها في الرصيف

أغلى من الجوهرِ.

والحُبُّ: «هل تسمعين

هذا الهتافَ العنيف؟

ماذا علينا؟ إنَّ عبداللطيف^(١)

يدري بأننا... ما الذي تحذرين؟

وانخطفتُ روحي، وصاح القطارُ

ورقرقت في مقلتيّ الدموعُ

سحابةً تحملني، ثم سار.

يا شمسَ أيامي، أما من رجوع؟

.....

جيكور، نامي في ظلام السنين.

(١) اقرأَ مذكرات «كنتُ شيوعياً» المنشورة في جريدة «الحرية» العراقية.

أودُّ لو أخوضُ فيك، أتُبِعُ القمرُ
وأسمعُ الحصى يَصِلُ منك في القرار
صَلِيلَ آلافِ العصافيرِ على الشجرِ.
أغابَةٌ من الدموعِ أنتِ أم نَهْرٌ؟
والسَّمكُ الساهرُ، هل ينامُ في السَّحَرِ؟
وهذه النجومُ، هل تظلُّ في انتظارِ.
تُطعِمُ بالحريزِ آلافًا من الإيَّزِ؟
وأنتِ يا بويب...

أودُّ لو غرقتُ فيك، ألقطُ المحارُ
أشيدُ منه دارُ
يُضيءُ فيها خُصرةَ المياهِ والشَّجرِ
ما تنضحُ النجومُ والقمرُ،
وأغتدي فيك مع الجَزْرِ إلى البَحْرِ!
فالموتُ عالمٌ غريبٌ يفتنُ الصَّغارِ،
وبابُه الخفيُّ كان فيك، يا بويب...

☆☆☆☆

بويب... يا بويب،
عشرونَ قد مضَيْنَ، كالدهورِ كلُّ عامِ.
واليومِ، حينَ يُطبقُ الظلامُ
وأستقرُّ في السريرِ دونَ أنْ أنامُ
وأرهفُ الضميرِ: دوحةٌ إلى السَّحَرِ
مرهفةُ الغصونِ والطيورِ والثمرِ -
أحسُّ بالدماءِ والدموعِ، كالمطرِ



يَنْضَحُهُنَّ الْعَالَمُ الْحَزِينُ:
أَجْرَاسُ مَوْتِي فِي عُرُوقِي تُرْعَشُ الرِّينُ،
فِيَدْلَهُمْ فِي دَمِي حَنِينُ
إِلَى رِصَاصَةِ يَشِقُّ ثَلْجُهَا الزُّوَامُ
أَعْمَاقَ صَدْرِي، كَالجَّحِيمِ يُشْعَلُ الْعِظَامُ.
أَوْدُ لَوْ عَدَوْتُ أَعْضُدُ الْمَكَافِحِينَ
أَشَدُّ قَبِضَتِي ثُمَّ أَصْفَعُ الْقَدَرَ.
أَوْدُ لَوْ غَرَّقْتُ فِي دَمِي إِلَى الْقَرَارِ،
لَأَحْمَلَ الْعَبَاءَ مَعَ الْبَشَرِ
وَأُبْعَثَ الْحَيَاةَ. إِنَّ مَوْتِي انْتِصَارُ !



المسيح بعد الصَّلب

بعدهما أنزلوني، سمعتُ الرياحُ
في نُواحٍ طویلٍ تسفُّ النخيل،
والخطى وهي تنأى. إذن فالجِراحُ
والصليبُ الذي سمَّروني عليه طَوالَ الأصيلُ
لم تُمتني. وأنصتُ: كان العويلُ
يَعْبُرُ السهلَ بيني وبين المدينةُ
مثلَ حَبْلٍ يشدُّ السفينهُ
وهي تهوي إلى القاع. كان النُّواح
مثلَ خيطٍ من النور بينَ الصبَّاحِ
والدُّجى، في سماءِ الشتاء الحزينهُ.
ثمَّ تغفو، على ما تُحسُّ، المدينةُ.

☆☆☆☆

حينما يَزهرُ التوتُ والبرتقالُ،
حين تمتدُّ «جيكور» حتى حدودِ الخيال،
حين تخضرُّ عُشبًا يُغني شذاها
والشموس التي أرضعتها سناها،
حين يخضرُّ حتى دجاها،
يلمسُ الدفءُ قلبي، فيجري دمي في ثراها.
قلبي الشمسُ إذ تنبضُ الشمسُ نورا،

قلبي الأرض، تنبض قمحًا، وزهرًا، وماءً نميرا،
قلبي الماء، قلبي هو السُّبُلُ
موتهُ البعثُ: يحيا بمن يأكلُ.

في العجين الذي يستدير
ويُدحى كنهيدٍ صغير، كندِّي الحياه،
مُتُّ بالنار: أحرقتُ ظلماءَ طيني، فظلُّ الإله.
كنتُ بدءًا وفي البدء كان الفقيرُ.
مُتُّ، كي يؤكلَ الخبزُ باسمي، لكي يزرعوني مع الموسمِ،
كم حياةٍ سأحيا: ففي كل حُفرةٍ
صرتُ مستقبلاً، صرتُ بذره،
صرتُ جيلًا من الناس: في كل قلبٍ دمي
قطرةٌ منه أو بعضُ قطرةٍ.

☆☆☆☆

هكذا عدتُ، فاصفرُّ لِمَا رآني يهوذا...

فقد كنتُ سرّةً.

كانَ ظلًّا، قد اسودَّ، منِّي، وتمثالَ فكره

جُمِدَتْ فيه واستلَّتِ الروحُ منها،

خافَ أن تفضَحَ الموتُ في ماءٍ عينيه...

(عيناهُ صخره)

راحَ فيهلُّ يُواري عن الناس قَبْرَهُ

خافَ من دفنهِ، من محالٍ عليه، فخبَّرَ عنها.

– «أنتِ ! أم ذاك ظلِّي قد ابيضُّ وارفَضُ نورا؟

أنتِ من عالم الموت تسعى ! هو الموتُ مرّةً.

هكذا قال آباؤنا، هكذا علمونا فهل كان زورا؟
ذاك ما ظنُّنا لما رأني، وقالته نظره.

☆☆☆☆

قَدَمٌ تعدو، قَدَمٌ ، قَدَمٌ
القبرُ يكاد بوقعِ خطاها ينهدمُ.
أُتري جاءوا؟ مَنْ غيرُهُم؟
قَدَمٌ... قَدَمٌ... قَدَمٌ
أَلقيتِ الصخرَ على صدري،
أَو ما صلبوني أمس؟.. فما أنا في قبري.
مَنْ يدري أَني؟.. مَنْ يدري؟؟
ورفاق يهوذا؟! مَنْ سيُصدِّق ما زعموا؟
قَدَمٌ... قَدَمٌ.

ها أنا الآنُ عُريانُ في قبري المظلم:
كنتُ بالأمس ألتفُّ كالظنِّ، كالبرعمِ،
تحتَ أكفاني الثلجِ، يخضلُّ زهرُ الدمِ،
كنتُ كالظلِّ بين الدُّجى والنهارِ.
ثم فجَّرتُ نفسي كنوزًا فعريتُّها كالثمارِ.
حينَ فصلتُ جيبِي وكُمِّي دثارًا،
حينَ دَقَّاتُ يومًا بلحمي عظامَ الصغارِ،
حينَ عَرَّيتُ جُرْحِي، وضمَّدتُ جُرْحًا سواه،
حُطِّمَ السورُ بيني وبين الإلهِ.

☆☆☆☆

فاجأ الجند حتى جراحي ودقات قلبي
فاجأوا كل ما ليس موتاً وإن كان في مقبره
فاجأوني كما فاجأ النخلة المثمرة
سرب جوعى من الطير في قرية مقفرة.

☆☆☆☆

أعين البندقيات يأكلن دربي،
شرع تحلم النار فيها بصلبي،
إن تكن من حديدٍ ونازٍ، فأحداق شعبي
من ضياء السماوات، من ذكرياتٍ وحب
تحمل العبء عني فيندى صليبي، فما أصغره
ذلك الموت، موتي، وما أكبره !

☆☆☆☆

بعد أن سمروني وألقيت عيني نحو المدينة
كدت لا أعرف السهل والسهور والمقبره:
كان شيء، مدى ما ترى العين،
كالغابة المزهره،
كان، في كل مرمى، صليبٍ وأم حزينه
قدس الرب !
هذا مخاض المدينة.

أنشودة المطر

عَيْنَاكِ غَابَتَا نَخِيلِ سَاعَةِ السَّحَرِ
أَوْ شُرْفَتَانِ رَاحَ يَنَائِي عَنْهُمَا الْقَمَرُ.
عَيْنَاكِ حِينَ تَبْسِمَانِ تُورِقُ الْكُرُومُ
وَتَرْقِصُ الْأَضْوَاءُ... كَالْأَقْمَارِ فِي نَهْرٍ
يَرِجُّهُ الْمَجْدَافُ وَهَنَّا سَاعَةَ السَّحَرِ
كَأَنَّمَا تَنْبِضُ فِي غَوْرِيهِمَا النُّجُومُ...
وَتَغْرَقَانِ فِي ضَبَابٍ مِنْ أَسَى شَفِيفٍ
كَالْبَحْرِ سَرَّحَ الْيَدَيْنِ فَوْقَهُ الْمَسَاءُ،
بِفَاءِ الشِّتَاءِ فِيهِ وَارْتِعَاشَةُ الْخَرِيفِ،
وَالْمَوْتِ، وَالْمِيلَادِ، وَالظَّلَامِ، وَالضِّيَاءِ،
فَتَسْتَفِيقُ، مَلءَ رُوحِي، رِعْشَةَ الْبِكَاةِ
وَنَشْوَةَ وَحْشِيَّةِ تُعَانِقِ السَّمَاءِ
كَنَشْوَةِ الْوَلَدِ إِذَا خَافَ مِنَ الْقَمَرِ !
كَأَنَّ أَقْوَامَ السَّحَابِ تَشْرَبُ الْغَيْومَ
وَقَطْرَةً فَقَطْرَةً تَذُوبُ فِي الْمَطْرِ...
وَكِرْكَزَ الْأَطْفَالِ فِي عِرَائِشِ الْكُرُومِ،
وَدَغْدَغَتِ صَمْتِ الْعَصَافِيرِ عَلَى الشَّجَرِ
أَنْشُودَةُ الْمَطْرِ...
مَطْرٌ...

مطرٌ...
مطرٌ...

تثاءبَ المساءَ، والغيومُ ما تزالُ
تسحُ ما تسحُ من دموعها الثَّقَالِ.
كأنَّ طفلاً باتَ يهذي قبلَ أن ينامَ
بأنَّ أمَّهُ - التي أفاقَ منذُ عامٍ
فلم يجدها، ثم حينَ لَجَّ في السؤالِ
قالوا له: «بعدَ غدٍ تعودُ...»

لا بدَّ أن تعودَ

وإن تهامسَ الرفاقُ أنها هناك
في جانبِ التلِّ تنامُ نومَةَ اللحودِ
تسفُّ من ترابها وتشربُ المطرَ،
كأنَّ صياداً حزيناً يجمعُ الشبَّاكِ
ويلعنُ المياهَ والقَدَرُ
وينثرُ الغنَاءَ حيثُ يأفلُ القمرُ.

مطرٌ...
مطرٌ...

أتعلمينَ أيَّ حُزنٍ يبعثُ المطرُ؟
وكيف تنشجُ المزاريبُ إذا انهمرَ؟
وكيف يشعرُ الوحيدُ فيه بالصَّياعِ؟
بلا انتهاء - كالدمِّ المراقِ، كالجِيعِ،
كالحُبِّ، كالأطفالِ، كالموتى - هو المطرُ!
ومقلتكِ بي تطيفان مع المطرِ

وَعَبَّرَ أَمْوَاجَ الْخَلِيْجِ تَمَسُّحُ الْبُرُوقِ
سَوَاحِلَ الْعِرَاقِ بِالنُّجُومِ وَالْمَحَارِ،
كَأَنَّهَا تَهَمُّ بِالشَّرِيقِ
فَيَسْحَبُ اللَّيْلُ عَلَيْهَا مِنْ دَمٍ دِيَارًا.
أَصِيْحُ بِالْخَلِيْجِ: « يَا خَلِيْجُ
يَا وَاهِبَ اللَّوْلُؤِ، وَالْمَحَارِ، وَالرَّدَى !»
فِيَرْجِعُ الصَّدَى
كَأَنَّهُ النَّشِيْحُ:
« يَا خَلِيْجُ

يَا وَاهِبَ الْمَحَارِ وَالرَّدَى..»
أَكَادُ أَسْمَعُ الْعِرَاقَ يُذْخِرُ الرَّعُودَ
وَيُخْزِنُ الْبُرُوقَ فِي السَّهْوِلِ وَالْجِبَالِ،
حَتَّى إِذَا مَا فَضَّ عَنْهَا خَتْمَهَا الرَّجَالُ
لَمْ تَتْرِكِ الرِّيَّاحُ مِنْ ثَمُودٍ
فِي الْوَادِ مِنْ أَثَرٍ.
أَكَادُ أَسْمَعُ النَّخِيْلَ يَشْرَبُ الْمَطْرَ
وَأَسْمَعُ الْقَرْيَ تَتُّنُ، وَالْمَهَاجِرِيْنَ
يُصَارِعُوْنَ بِالْمَجَادِيْفِ وَبِالْقَلُوعِ،
عَوَاصِفَ الْخَلِيْجِ، وَالرَّعُودِ، مِنْشِدِيْنَ:
«مَطْر...»

مَطْر...

مَطْر..

وَفِي الْعِرَاقِ جُوعٌ

وينثرُ الغلال فيه موسمُ الحصادِ
لتشبعَ الغريانُ والجرادُ
وتطحنُ الشوانُ والحجرُ
رَحَى تدورُ في الحقول... حولها بَشْرُ

مطر...

مطر...

مطر...

وكم ذَرْفُنَا، ليلةَ الرحيل، من دموعٍ
ثمَّ اعتللتنا - حَوْفَ أَنْ نُلامَ - بالمطر...

مطر...

مطر...

ومنذُ أَنْ كُنَّا صغارًا، كانت السماءُ

تغيّمُ في الشتاء

ويهطلُ المطرُ،

وكلَّ عامٍ - حينَ يُعشبُ الثرى - نجوعُ

ما مرَّ عامٌ والعراقُ ليسَ فيه جوعٌ.

مطر...

مطر...

مطر...

في كلِّ قطرةٍ من المطرُ

حمرًا أو صفراءً من أجنَّةِ الرُّهرِ.

وكلُّ دمعةٍ من الجياحِ والعُراةِ

وكلُّ قطرةٍ تُراقُ من دمِ العبيدِ

فهي ابتسأً في انتظار مَبْسَمٍ جديد
أو حَلْمَةٌ تَوَرَّدَتْ على فمِ الوليدِ
في عالمِ الغدِ الفتِيّ، واهبِ الحياةَ !
مطر...

مطر...

مطر...

سَيُعْشِبُ العراقُ بالمطرِ...»

أصيحُ بالخليج: «يا خليج...

يا واهبَ الوَلْوِ، والمحارِ، والردى !»

فيرجعُ الصدى

كأنَّه النشيحُ:

«يا خليج

يا واهبَ المحارِ والردى.»

وينثُرُ الخليجُ من هباتِهِ الكثَارَ،

على الرمالِ، رَغْوَهُ الأجاجِ، والحارِ

وما تبَقَى من عظامِ بئسِ غريقُ

من المهاجرين ظلَّ يشربُ الردى

من لجةِ الخليجِ والقرارِ،

وفي العراقِ ألفُ أفعى تشربُ الرحيقُ

من زهرةٍ يربُّها الفراتُ بالندى.

وأسمعُ الصدى

يرنُّ في الخليجِ

«مطر...

مطر...

مطر...

في كلِّ قَطْرَةٍ من المطرِ
حمراءَ أو صفراءَ من أجنَّةِ الرَّهْرِ.
وكلِّ دَمْعَةٍ من الجِياحِ والعُراةِ
وكلِّ قَطْرَةٍ تُراقُ من دمِ العبيدِ
فهِيَ ابتسَامٌ في انتظارِ مَبْسَمٍ جَديدِ
أو حَلْمَةٍ تُورِّدُ على فَمِ الوليدِ
في عالمِ الغَدِ الفُتَيِّ، واهبِ الحِياةِ..»
ويَهطلُ المطرُ...

مدينة بلا مطر

مدينتنا تَوَّرَّق ليلها نارُ بلا لهبِ.
تُحْمُ دروبها والدُّور، ثمَّ تزولُ حُمَاهَا
ويصبغها الغروبُ بكلِّ ما حملتهُ من سُحْبِ
فتوشكُ أن تطيرَ شرارةً ويهبَّ مَوْتَاهَا:
«صحا من نومه الطينيِّ تحتَ عرائشِ العنَبِ...
صحا تمَّوزُ، عادَ لبابلَ الخضراءِ يرهاها.»
وتوشكُ أن تدقَّ طبولُ بابلَ، ثمَّ يغشاها
صفيَرُ الريحِ في أبراجها وأنينُ مرضاها.
وفي غرفاتِ عشتارِ
تظلُّ مجامرُ الفخَّارِ خاويةً بلا نارِ،
ويرتفعُ الدعاءُ، كأنَّ كلَّ حناجرِ القَصَبِ
من المستنقعاتِ تصيح:
«لاهتةً من التعبِ
تؤوبُ إلهةَ الدمِ، خبزُ بابلَ، شمسُ أذارِ.
ونحنُ نهيمُ كالغرباءِ من دارٍ إلى دارِ
لنساءٍ عن هداياها.
جياعُ نحنُ... وا أسفاهُ! فارغتانِ كفاها،
وقاسيتانِ عيناها
وباردتانِ كالذهبِ.



سحائبٌ مُرعداتٌ مُبرقاتٌ دونَ إِمطارٍ،
قضيِنا العامَ، بعدَ العامِ، بعدَ العامِ، نرعاها،
ورِيحٌ تُشبهُ الإِعمارَ، لا مرَّتْ كاعصارِ
ولا هدأتْ - ننامُ ونستفيقُ ونحنُ نخشاها.
فيا أربابنا المتطلِّعينَ بغيرِ ما رحمهُ،
عُيونكمُ الحجارُ نُحسُّها تنداحُ في العَثمهُ
لترجمنا بلا نقمه،
تدورُ كأنهنَّ رَحَى بطيئاتٌ تلوكُ جفوننا..
حتَّى أَلفناها،

عيونكمُ الحجارُ كأنها لِبَناتُ أسوارِ
بأيدينا، بما لا تفعلُ الأيدي، بِنيناها.
عذارانا حَزاني ذاهلاتٌ حولَ عشتارِ
يغِيضُ الماءُ شيئاً بعدَ شيءٍ من مُحياها،
وَعُصناً بعدَ غصنٍ تَدبُلُ الكرمهُ.
بطييءٌ موتنا المنسلُّ بينَ النورِ والظلمهُ،
له الويلاتُ من أسدٍ نُكابِدُ شدقهُ الأدرُدُ!
أنارُ البرقِ في عينيه أم من شُعلةِ المعبدِ؟
أفي عينيه مِبْحَرَتانِ أُوجِرَتا لعشتارِ؟
أنافذتانِ من ملكوتِ ذاكِ العالمِ الأسودِ:
هنالكِ حيثُ يحملُ كلُّ عامٍ، جُرْحَهُ الناري،
جُرْحَ العالمِ الدوّارِ، فاديهِ
ومنقذه الذي في كلِّ عامٍ من هناكِ يعودُ بالأزهارِ
والأمطارِ - تجرُّنا يداهُ لنستفيقَ على أياديهِ؟



ولكن مرّت الأعوامُ، كُثُرًا ما حسبنها،

بلا مطرٍ... ولو قطرَه

ولا زهرٍ... ولو زهرَه

بلا ثمرٍ - كأنّ نخلينا الجرداءَ أنصابٌ أقمنها

لنذبلَ تحتها ونموت.

سيّدنا جفانا. أه يا قَبْرَه

أما في قاعك الطينيّ من جرّه؟

أما فيها بقايا من دماء الربِّ، أو بذرَه؟

حدائقه الصغيرة أمسِ جعنا فافترسناها:

سَرَقْنَا من بُيوت النمل، من أجرانها، دُخْنَا وشوفانا

وأوشابًا زرعناها

فوفّينا - وما وَفَى لنا - نُذْرَه !»

وسارَ صغارٌ بابلَ يحملون سِلالَ صُبّارِ

وفاكهةٍ من الفَخّارِ، قُرْبانًا لعشتارِ

ويُشعلُ خاطفُ البرقِ،

بظلٍّ من ظلالِ الماءِ والخضراءِ والنارِ،

وجوههمُ المدوّرة الصغيرة وهي تستسقي

فيوشكُ أنْ يُفْتَحَ - وهي تُومضُ - حقلُ نوّارِ

ورفٍّ - كأنّ ألف فراشةٍ نُشِرَتْ على الأفقِ

نشيدهمُ الصغيرُ:

«قبورُ إخوتنا تُنادينا

وتبحثُ عنك أيدينا

لأنّ الخوف ملءُ قلوبنا، ورياحِ أذارِ

تهزُّ مهودنا فنخافُ. والأصواتُ تدعوننا.
جياعُ نحن مرتجفونَ في الظلمة
ونبحثُ عن يدٍ في الليل تُطعمنا، تُغطينا،
نشدُّ عيوننا المتلففات بزندها العاري.
ونبحثُ عنك في الظلماء، عن ثدين، عن حلمه
فيا من صدرها الأفق الكبير وثديها الغيمة
سمعتِ نشيجنا ورأيتِ كيف نموتُ... فاسقينا!
نموتُ، وأنتِ - وا أسفاه - قاسيةٌ بلا رحمه.
فيا أبائنا، من يفتدينا؟ من سيُحيينا؟
ومن سيموتُ: يُولمُ لحمه فينا؟»
وأبرقتِ السماءُ كأنَّ زنبقةً من النارِ
تُفتِّحُ فوقَ بابلَ نفسها. وأضاءَ وادينا،
وغلغلَ في قرارة أرضنا وهجُ فعراها
بكلِّ بذورها وجذورها وبكل موتاها.
وسَحَّ - وراءَ ما رفعتهُ بابلُ حولَ حُمَّاها
وحول ترابها الظمان، من عمَدٍ وأسوارِ
سحابٍ.. كان لولا هذه الأسوارِ رِواها!
وفي أبدٍ من الاصغاءِ بين الرعدِ والرعدِ
سمعنا، لا حفيفَ النخلِ تحتِ العارضِ السحَّاحِ
أو ما وشوشتهُ الريحُ حيثُ ابتلتِ الأدواحُ،
ولكنُ خفقةَ الأقدامِ والأيدي
وكركرةً و«أه» صغيرةً قبضتُ بيَمَناها
على قَمَرٍ يُرْفَرِفُ كالفراشةِ، أو على نجمه..



علة هبة من الغيمة،
على رعشات ماء، قطرة همست بها نسمة
لنعلم أنّ بابل سوف تُغسل من خطاياها !



شُبَّاكُ وَفَيْقَةَ (١)

شُبَّاكُ وَفَيْقَةَ فِي الْقَرْيَةِ
نَشْوَانُ يُطَلُّ عَلَى السَّاحَةِ
(كَجَلِيلٍ تَنْتَظِرُ الْمَشِيئَةَ
وَيَسُوعَ) وَيَنْشُرُ أَلْوَاحَهُ .
إِيكَارُ يُمَسِّحُ بِالشَّمْسِ
رِيشَاتِ النَّسْرِ وَيَنْطَلِقُ،
إِيكَارُ تَلَقَّفَهُ الْأَفْقُ
وَرَمَاهُ إِلَى اللَّجَجِ الرَّمَسِ .
شُبَّاكُ وَفَيْقَةَ يَا شَجْرَهُ
تَتَنَفَّسُ فِي الْعَبَشِ الصَّاحِي
الْأَعْيُنُ عِنْدَكَ مَنْتَظِرُهُ
تَتَرَقَّبُ زَهْرَةَ تَفَّاحٍ،
وَبُؤْيِبُ نَشِيدُ
وَالرِّيحُ تُعِيدُ أَنْغَامَ الْمَاءِ عَلَى السَّعْفِ
ووفَيْقَةُ تَنْظُرُ فِي أَسْفِ
مَنْ قَاعِ الْقَبْرِ وَتَنْتَظِرُ:
سَيَمُرُّ فِيهِمْ سَهَ النَّهْرِ
ظِلًّا يَتَمَاوَجُّ كَالْجَرَسِ
فِي ضَحْوَةِ عَيْدٍ،

ويهفُّ كحبات النَّفسِ.

والريحُ تُعيدُ

أنغامَ الماءِ (هو المطرُ)

والشمسُ تركزُ في السَّعْفِ.

شُبَّاكُ يضحكُ في الألقِ؟

أم بابٌ يفتَحُ في السُّورِ

فتقرُّ بأجنحةِ العَبَقِ

روحٌ تتلهفُ للنورِ؟

يا صخرةَ معراجِ القلبِ

يا «صُورَ» الألفةِ والحبِّ

يا دَرْبًا يصعدُ للربِّ

لولاكِ لما ضحكتِ للأنسامِ القريه،

في الريحِ عبير

من طوقِ النهرِ يُهددنا ويغنينا

(عوليس^(١) مع الأمواجِ يسيّرُ

والريحُ تُذكِّره بجزائرِ منسيه:

«شينا يا ريحُ فخلينا»)

العالمُ يفتَحُ شبَّاكه

من ذاكِ الشبَّاكِ الأزرقِ،

يتوحدُ، يجعلُ أشواكه

(١) هو أوديسيوس بطل الأوديسة.

أزهارًا في دَعَةِ تَعْبِقُ.

شُبَّاءُ مِثْلَكَ فِي لِبْنَانِ،

شُبَّاءُ مِثْلَكَ فِي الْهِنْدِ،

وَفَتَاةٌ تَحْلُمُ فِي الْيَابَانِ

كُوْفَيْقَةَ تَحْلُمُ فِي اللَّحْدِ

بِالْبَرْقِ الْأَخْضَرِ وَالرَّعْدِ.

شُبَّاءُ وَفَيْقَةَ فِي الْقَرْيَةِ

نَشْوَانُ يُطَلُّ عَلَى السَّاحَةِ

(كَجَلِيلِ تَحْلُمُ بِالْمَشِيَةِ

وَيَسُوعِ).

وَيُحْرِقُ الْوَاحَةَ.

شباك وفيقة (٢)

أطلي فشبأك الأزرُق
سماء تجوع،
تبينته من خلال الدموع
كأنب بي ارتجف الزورق.
إذا انشق عن وجهك الأسمر
كما انشق عن عشروت المحار
وسارت من الرغو في مئزر
ففي الشاطئين اخضراز
وفي المرفأ المغلق
تُصلي البحار.
كأني طائر بحر غريب
طوى البحر عند المغيب
وطاف بشباكك الأزرُق
يُريدُ التجاءً إليه
من الليل يريدُ عن جانبيه
فلم تفتحي.
ولو كان ما بنينا محض باب
لألقيت نفسي لديك
وحدقت في ناظريك.

هو الموتُ والعالمُ الأسفلُ
هو المستحيلُ الذي يُذهِلُ.
تمتَّلتُ عينيكِ يا حُفرتينِ
تُطلَّانِ سحرًا على العالمِ
على ضفَّةِ الموتِ بوابتينِ
تُلَوِّحانِ للقادمِ.
وشبَّاكِ الأزرُقِ
على ظلمةٍ مُطبَّقِ،
تَبَدَّى كحبلٍ يشدُّ الحياهُ
إلى الموتِ كي لا يموتِ.
شِفاهُكِ عندي ألدُّ الشِّفاهِ
وبيتِكِ عندي أحبُّ البيوتِ
وماضيكِ من حاضري أجملُ:
هو المستحيلُ الذي يُذهِلُ:
هو الكاملُ المنتهي لا يُريدُ
ولا يُسَنِّهِي أَنَّهُ الأَكْمَلُ،
ففي خاطري منه ظلٌّ مديدُ
وفي حاضري منه مستقبلُ.

☆☆☆☆

تُرى جاءكِ الطائرُ الرِّبْقِيُّ
فحلَّقَتِ في ذاتِ فجرٍ مَعَهُ
وألقى نُعاسَ الصِّباحِ النَّقِيِّ
على حِسِّكِ المشتكي بَرُقُعَهُ؟

وفتحت عينيك عند الأصيل
على مدرج أخضر
وكان انكسار الشعاع الدليل
الى التلّ والمنزل المرمر.
هناك المساء اخضراراً نحيل
من التوت والظلّ والساقية
وفي الباب مدّ الأمير الجميل
ذراعيه يستقبل الآتية:
«أميرتي الغالية
لقد طال منذ الشتاء انتظاري
ففيم التأني وفيم الصدود؟»

☆☆☆☆

وهيها أن ترجعي من سفار
وهل ميّت من سفار يعود؟

جيكور ١٩٦١/٤/٢٩

أم البروم

(المقبرة التي أصبحت جزءاً من المدينة)

رأيتُ قوافلَ الأحياءِ ترحلُ عن مغانيها
تُطاردها، وراءَ الليلِ، أشباحُ الفوانيسِ
سمعتُ نشيجَ باكيها،
وصرخةَ طفلها، وتُغَاءَ صاِدٍ من مواشيها،
وفي وَهَجِ الظهيرةِ صارخاً «يا حاديَ العيسِ»
وعلى أَلَمٍ مغنيها .
ولكنْ لم أَرِ الأمواتِ يطردهنَّ حَفَّارُ
من الحَفْرِ العِتاقِ وينزِعُ الأكفانَ عنها أو يُغَطِّيها .
ولكنْ لم أَرِ الأمواتِ، قبلَ ثراكِ، يُحيلها
مُجَوِّ مدينةٍ، وغناءً راقصةٍ، وخَمَّارُ .
يقولُ رفيقي السكران: «دعها تأكُلُ الموتى
مدينتنا لتكبرَ، تحضُنُ الأحياءَ، تُسقيننا
شراباً من حدائقِ برسفون^(١)، تَعَلِّنا حتى
تدورُ جماجمُ من سُكْرِ مشى فينا !»
مدينتنا منازلُها رَحَى ودروبُها نارُ،
لها من لحمنا المعرُوكِ حُبٌّ، فهو يكفيها ...
علامَ تمدُّ للأمواتِ أيديها، وتختارُ،

(١) ابنة إلهة الخصب اليونانية، اختطفها بلوتو، سيّد العالم السفلي، عالم الموتى، فصارت تعيش معه هناك.

تلوك ضلوعها وتقيدتها للريح تسفيها!
تسلل ظلها الناري من سجين ومستشفى
ومن مبيغى ومن خمارة... من كل ما فيها،

وسار على سلالم نومنا زحفا
ليهبط في سكينه روحنا ألما فيكيها.
وكانت، إذ يُطلّ الفجر، تأتيك العصافيرُ
تساقط، كالثمار على القبور، تُنقر الصماتا
فتحلم أعين الموتى
بكركرة الضياء وبالتلال يرشها النور،
وتسمع ضجة الأطفال أم ثلاثة ضاعوا
يتامى في رحاب الأرض: إن عطشوا وإن جاعوا
فلا ساق ولا من مطعم، في الكوخ ظلوا واعتلى النعش
رؤوس القوم والأكتاف... أفندة وأسماع
ولا عين ترى الأم التي منها خلا العش.
وفي الليل
إذا ما ذرذر الأنوار في أبد من الظلمه،
ودبت طفلة الكفين، عارية الخطى، نسمه
تلثم من المدينة، كالمحار وكالحصى من شاطي رمل،
نثار غنائها وبكائها - لم تترك العتمه
سوى زبد من الاضواء منثور
يذوب على القبور، كأنه اللبنا في سور
يُباعد عالم الأموات عن دنيا من الدل،

من الأغلال، والبُوقاتِ، والآهاتِ والرُّحمةِ.
وأوقدتِ المدينةَ نارها في ظلّةِ الموتِ
تُقَلِّعُ أعينَ المواتِ ثم تدسّ في الحُفْرِ
بذورَ شقائقِ النُّعْمانِ، تزرعُ حَبّةَ الصمْتِ
لتنمّرَ بالرنينِ من النقودِ، وضجّةِ السَّفَرِ،
وقهقهةِ البغايا والسكرارى في ملاهيها.
وعصرتِ الدفينَ من النهودِ بكلِّ أيديها
تُمزقهنَّ بالعجلاتِ والرَّقصاتِ والرُّمْرِ
وتركلهنَّ كالأكْرِ
تُفجّرُها الرياحُ على المدارجِ في حواشيها
وحيثُ تلاشتِ الرعشاتُ والأشواقِ والوجدِ
وعادَ الحبِّ ملمسَ دودةٍ وأنينَ إعصارِ،
تثابتتِ المدينةُ عن هوى كِتوقِدِ النارِ
تموت بحرّها ورمادها ودخانها الهاري،
ويا لغةً على الأمواتِ أخفى من دُجى الغابهِ
تُرَدِّدها المقاهي: «ذلك الدلالُ جاءَ يُريدُ أتعبه»
إذا سمعوكَ رنَّ كأنه الجرسُ الحديدُ يرنُّ في السَجْرِ
صدىً من غمغماتِ الريفِ حولَ مواقدِ السَّمْرِ:
«إذا ما هزّتِ الأنسامُ مهدَ السنبِلِ الغافي
وسالَ أنينُ مجدافِ
كأنَّ الزورقَ الأسيانِ منه يسيلُ في حُلْمِ،
عَصْرَتْ يديّ من ألم.»
فأينَ زوارقِ العشاقِ من سيارَةِ تعدو

ببنتِ هوى؟ وأين موائدُ الخمرِ من سهلٍ يمدُّ موائدَ القمرِ؟
على أمواتك المتناثرين بكلِّ مُنحدرٍ
سلامٌ جالٍ فيه الدمعُ والآهاتُ والوجدُ،
على المتبدلاتِ لحودُهُمُ والغاياتِ قبورُهُمُ طُرقا
وطيبُ رقادُهُمُ أرقا
يحنُّ إلى النشورِ ويحسبُ العجالاتِ في الدربِ
ويرقبُ موعدَ الربِّ.

١٩٦١/٧/٢١

دار جدِّي

مُطْفَأَةٌ هي النوافذ الكِثَارُ
وبابُ جدِّي موَصَدٌ وبيته انتظَارُ
وأطرقُ البابِ، فمن يُجِيبُ، يفتَحُ؟
تُجِيبني الطفولةُ، الشباب منذ صارُ،
تُجِيبني الجِرَارُ جَفَّ ماؤها، فليسَ انضَحُ:
«بُؤِيبُ»، غير أنها تُذرذِرُ العُبَارُ.
مطْفَأَةٌ هي الشموسُ فيه والنجومُ.
الحقْبُ الثلاث منذ أن خفقتُ للحياهُ
في بيتِ جدِّي، ازدحمتُ فيه - كالغيومُ
تُختصرُ البحارُ في خدودهنَّ والمياهُ.
فنحنُ لا نُلْمُ بالردى من القبورُ
فأوجهُ العجائزِ
أفصحُ في الحديث عن مناجل العصورُ
من القبور فيه والجنائزِ.
وحين تُفقِرُ البُيوت من بُناتها
وساكنيها، من أغانيها ومن شكاتها
نُحسُّ كيف يسحَقُ الزمانُ إذ يدورُ.

☆☆☆☆

أأشتهيك يا حجارةَ الجار، يا بلاط، يا حديد، يا طلاء؟

أَشْتَهِي التَّقَاءَ كُنْ مِثْلَمَا انْتَهَى إِلَيَّ فِيهِ؟
أُم الصَّبَا، صَبَايَ وَالطُفُولَةَ اللُّعُوبَ وَاللَّهْنَاءَ؟
وَهَلْ بَكَيْتُ أَنْ تَضَعُ عَ الْبِنَاءِ
وَأَقْفَرَ الْفِنَاءِ أَمْ بَكَيْتُ سَاكِنِيهِ؟
أَمْ أَنْنِي رَأَيْتُ فِي خِرَابِكَ الْفِنَاءِ
مُحَدِّقًا إِلَيَّ، مِنْ دَمِي
مَكْشَرًا مِنْ الْحَجَارِ؟ آه، أَيُّ بَرَعِمِ
يُرَبُّ فِيكَ؟ بَرَعِمُ الرَّدَى !! عَدَا أَمُوتُ
وَلَنْ يَظِلَّ مِنْ قَوَايِ مَا يَظِلُّ مِنْ خِرَابِ الْبُيُوتِ:
لَا أَنْشِقُ الضِّيَاءَ، لَا أَعْضَعُ الْهُوَاءَ،
لَا أَعْصِرُ النَّهَارَ أَوْ يَمِصُّنِي الْمَسَاءَ.

☆☆☆☆

كَأَنَّ مَقْلَتِي، بَلْ كَأَنَّي انْبَعَثْتُ (أُورْفِيُوس)
تَمَّصُّهُ الْخِرَابُ الْهُوَى إِلَى الْجَحِيمِ
فِيَلْتَقِي بِمَقْلَتِيهِ، يَلْتَقِي بِهَا، بِيُورْدِيْسِ:
«آه يَا عُرُوسِ»

يَا تَوَامَ الشَّبَابِ، يَا زَنْبَقَةَ النَّعِيمِ !
طَرِيقَهُ ابْتِنَاهُ بِالْحَنِينِ وَالْغِنَاءِ:
بِرَاعِمِ الْخُلُودِ فَتَحَّتْ لَهُ مِغَالِقُ الْفِنَاءِ.
وَبِالْغِنَاءِ، يَا صَبَايَ، يَا عِظَامِ، يَا رَمِيمِ،
كَسَوْتِكَ الرِّوَاءَ وَالضِّيَاءَ

☆☆☆☆

طِفْلُوتِي، صَبَايَ، أَيِّنَ.. أَيِّنَ كُلُّ ذَاكَ؟

أين حياة لا يحدّ من طريقها الطويل سور
كشّر عن بؤابة كآعين الشباك
تُفضي إلى القبور؟
والكون بالحياة ينبض: المياه والصخور
وذرة الغبار والنمال والحديد.
وكلّ لحن، كلّ موسم، جديد:
الحرث والبذار والزهور.
وكلّ ضاحك فمن فؤاده. والأرض لا تدور
والشمس، إذ تغيب، تستريح كالصغير في رقادها.
والمرء لا يموت إن لم يفترسه في الظلام ذيب
أو يختطفه مارء، والمرء لا يشيب
(فهكذا الشيوخ منذ يُولدون
الشعَر الأبيض والعصيّ والذقون).

☆☆☆☆

وفي ليالي الصيف حين ينعس القمر
وتدبّل النجوم في أوائل السحر،
أفيق أجمع الندى من الشجر
في قدح ليقتل السعال والهزال.
وفي المساء كنت استحمّ بالنجوم،
عيناّي تلقطانهنّ نجمةً فنجمه، وراكب الهلال
سفينةً .. كأنّ سنْدبادَ في ارتحال:
شراعيّ الغيوم
ومرفأَيّ المحال،



وأبصرُ اللهَ على هيئةِ نخلةٍ، كتاجِ نخلةٍ يَبِيضُ في الظلامِ،
أحسَّه يقولُ: «يا بُنَيَّ، يا غُلامَ،
وهَبْتُكَ الحِياةَ والحَنانَ. والنجومِ
وهَبْتُها لمقلتيك، والمطرِ
للقدمين الغَضَّتَيْنِ. فاشربِ الحِياةَ
وعُبَّها، يُحِبُّكَ الإلهُ.»



أهكذا السنونُ تذهبُ
أهكذا الحِياةُ تنضَبُ؟
أحسَّ أنني أدوبُ، أنعبُ،
أموتُ كالشَّجَرِ.



الأم والطفلة الضائعة

قفني، لا تغربي، يا شمسُ، ما يأتي مع الليلِ
سوى الموتى. فمن ذا يرجع الغائبَ للأهلِ
إذا ما سدَّتِ الظلماء

دروباً أثمرت بالبيت بعدَ تطاولِ المحلِّ؟
وأن الليلِ ترجفُ أكْبُدُ الأطفالِ من أشباحه السوداءً
من الشُّهبِ اللوامحِ فيه، مما لاذَ بالظلِّ
من الهمسات والأصداء.

شعاعك مثل خيط اللابرنت، يشدّه الحبُّ
الى قلب ابنتي من باب دارِي، من جراحاتي
وأهاتي.

مضى أزلُّ من الأعوام: آلاف من الأعمار، والقلبُ
يعدُّ خوافقَ الأنسام، يحسبُ أنجمَ الليلِ،
يعدُّ حقائبَ الأطفالِ، يبكي كلما عادوا
من الكتّابِ والحقلِ.

ويا مصباحَ قلبي، يا عزائي في الملماتِ،
مئى روعي، ابنتي: عودي إليّ فيها هو الزادُ
وهذا الماء. جوعى؟ هاك من لحمي
طعاماً. أه !! عطشى أنتِ يا أمي؟
فعبّي من دمي ماءً وعودي.. كلهم عادوا.

كأنك (برسفون) تخطفها قبضة الوحش
وكانت أمها الولهي أقلّ ضنى وأهاما
من الأم التي لم تدّر أين مضيت
في نعش؟

على جبل؟ هل بكيت؟ ضحكت؟ هبّ الوحش أم ناما؟
وحين تموت نار الليل، حين يُعسعس الوسنُ
على الأجفان، حين يُفتشُ القصاصُ في النارِ
ليلمخ من سفينة سندباد ذوائب الصاري
ويُخفّ صوتُه الوهنُ،

يجنّ دمي إليك، يحنّ، يعصرني أسى ضارٍ.
مضت عشر من السنوات، منذ وقفت في البابِ
أنادي، لا يردّ عليّ إلا الريح في الغابِ
تُمرّق صيحتي وتعيدها... والدرب مسدودُ
بما تتنفس الظلماء من سُمرٍ وأعنانِ
وأنت كما يذوبُ النور في دوامة الليل،
كأنك قطرة الطلّ

تشرّبها التراب... أكاد من فرقي وأوصابِ
أسائل كل ما في الليل من شبحٍ ومن ظلّ،
أسائل كل ما طفّل:

«أأبصرت ابنتي؟ أرايتها؟ أسمعنت ممشاها؟»
وحين أسير في الرّحمة
أصغر كل وجه في خيالي: كان جفناها
كغممة الشروق على الجداول تشرّب الظلمة،

وكانَ جَبِينُهَا ... وأراكِ في أبدٍ من الناسِ

مورَّعةً، فاهِ لو أراكِ وأنتِ ملتَمَةٌ !

وأنتِ الآنِ في سَحَرِ الشبابِ، عصيره القاسي

يغلغلُ في عروقكِ، ينهشُ النَّهدينِ والثغرا

وينشرُ حولكِ العِطرا،

فيحلمُ قلبُكِ المسكينِ بينِ النورِ والعِثمَةِ

بشيءٍ لو تجسَّدَ كان فيه الموتُ والنشوه !

وأذكرُ أنَّ هذا العالمَ المنكود تملأُ كأسُهُ الشَّقوَه

وفيه الجوعُ والآلامُ، فيه الفقرُ والداؤُ.

أأنتِ فقيرةٌ تتضرَّعُ الأجيالُ في عَيْنَيْكِ، فهي فمٌ

يُريدُ الزادَ، يبحثُ عنه والطرقا ظلماءُ؟

أحدِّقُ في وجوهِ السائلاتِ أحوالها السَقَمُ

ولوئِها الطوى، فأراكِ فيها، أبصرُ الأيدي

تُمدُّ، أحسُّ أنَّ يدي.. يدي معهنَّ تعرضُ زرقَةَ البردِ

على الأبصارِ وهي كأنهنَّ أدارها صنمٌ

تجمدُ في مدى عينيه أدعيةٌ وسالَ دمٌ

فأصرُحُ «في سبيلِ الله» تخنُقُ صوتي الدَمَعَه

بخيطِ الملحِ والماءِ.

وأنتِ على فمي لَوَعَه

وفي قلبي، وضوءٌ شَعَّ ثمَّ حَبَا بلا رجعه

وخلفني أفتشُ عنه بين دُجَى وأصداءِ.

البصرة ١٩٦١/١٠/٦

المعبد الغريق

خيولُ الريحِ تَصْهَلُ، والمرافئُ يَلْمَسُ الغَرْبُ
صواريها بشمسٍ من دمٍ، ونوافذُ الحانهُ
تراقصُ من وراءِ خِصاصها سُرُجٌ، وجمَعَ نفسَهُ
الشُّرْبُ
بَخِيطٍ من خُيوطِ الخَوْفِ مشدودًا إلى قنينةٍ، ويمدُّ أذانهُ
إلى المتلاطمِ الهدَّارِ عندَ نوافذِ الحانهِ.
وحدَّتْ - وهو يهمسُ جاحظَ العينينِ، مُرتعدًا،
يُعْبُ الخَمْرَ - شَيْخٌ عن دُجى ضافٍ وأدغالِ
تلامحَ وَسَطها قَمَرِ البحيرةِ يلثمُ العَمْدَا...
يمسُّ البابَ من جنباتِ ذاكِ المَعْبِدِ الخالي
طَواهُ الماءُ في غَلَسِ البحيرةِ بينَ أحراشٍ مُبعثرةٍ
وأدغالِ.

☆☆☆☆

هنالك قَبْلَ أَلْفٍ، حينَ مَجَّ لظاهُ من سَقَرِ
فمُ يفتتحُ البركانَ عنه فتنتفضُ الحمى
قرارةً كلِّ ما في الوادِ من حَجَرٍ على حَجَرٍ،
تفجَّرَ باللُّظى رَحْمُ البحيرةِ ينثرُ الأسماكَ والدمَ،
مُرغِيًا سُمًّا
وقرَّ عليه كلكلُّ مَعْبِدٍ عَصَفَتْ به الحمى.

تطفأ في المباخر جمرها وتوهج الذهبُ
ولاح الدرُّ والياقوت أثماراً من النور،
نجوماً في سماءِ الماءِ تزحفُ دونها السُّحبُ
تمرغُ فوقها التمساحُ ثم طفا على السُّورِ
ليحرسَ كنزَهُ الأبدِيَّ حتى عن يدِ الظلماءِ والنورِ

☆☆☆☆

وأرسي الأخطبوطُ فنارَ مَوْتِ يرصد البابا،
سجا في عينه الصُّوراءِ صُبْحُ كان في الأزلِ...
تَهَزُّ بالزمانِ، يمرُّ ليلٌ بعدَ ليلٍ وهو ما غابا
ففيهم غرورٌ هذا الهالكِ الإنسانِ، هذا الحاضرِ المتشددِ
بالأجلِ؟

أَعَمَّرَ ألفَ عامٍ؟ لبيته شهدَ الخلائقَ وهي تعبرُ شُرْفَةَ الأزلِ !

☆☆☆☆

ألا يا لبيته شهدَ السلاحفَ: تسحقُ الدنيا
قياسرها، ويمنعُ درعها ما صوّبَ الزمنُ
إليها من سهامِ الموتِ !

لكنّ الذي يحيا

بقلبٍ يعبرُ الأبادَ، يكسرُ حدّه الوهنُ
فيصمتُ، عُمُرُهُ أزلٌ يمَسُّ حدوده أبدٌ من الأكوانِ

في دنيا

هنالك ألفُ كَنزٍ من كنوزِ العالمِ الغرقى
ستشعُ ألفَ طفلٍ جائعٍ وتُقيلُ آلافاً من الداءِ
وتُنقذُ ألفَ شعْبٍ من يدِ الجالِدِ، لو ترقى

الى فَلكِ الضمير!

أكل هذا المال في دنيا الأرقاءِ
ولا يتحرّرون؟ وكيف وهو يُصفّدُ الأعناقِ،

يبطها إلى الداءِ؟

كأنّ الماءَ في ثبجِ البحيرةِ يمنعُ الزمنّا
فلا يتقحّمُ الأغوار، لا يخطو إلى الغُرفِ
كأنّ على رتاجِ البابِ طلّسمُهُ، فلا وسنا
ولكنّ يقظةً أبَدُ، ولا موتَ يحدُّ حدودَ ذاكِ الحاضرِ

الترفِ

كأنّ تهجّدَ الكهّانِ نَبُعُ في ضميرِ الماءِ يدُقُّ منه
للغرفِ.

إذنّ ما عادَ من سَفَرٍ إلى أهليهِ عوليسُ...

إذنّ فشراعهُ الخفّاقُ يزرعُ فائِرَ الأمواجِ

بما حَسَبَ الشهورَ وعدَّ حتى هدّه البؤسُ.

فيا عوليسُ... شابَ فتاكِ، مَبَسَمَ زوجكِ الوهاجِ

عَدَا حَط. ففيمَ تعود، تفري نحوَ أهلكَ أضلَعِ الأمواجِ

هَلُمَّ فمَاءُ (شيني)^(١) في انتظاركِ يحبسُ الأنفاسِ

فما جَرَحَتْهُ نَفْرَةٌ طائِرٍ أو عَكْرَتْهُ أناملُ النَّسَمِ.

☆☆☆☆

هَلُمَّ فَإِنَّ وَحْشًا فِيهِ يَحْلُمُ فِيكَ دُونَ النَّاسِ

ويخشى أَنْ تُفَجِّرَ عَيْنَهُ الحمرَاءَ بالظلمِ

وَأَنْ كَنُوزَهُ العذراءُ تسألُ عن شرعكِ خافِقَ النَّسَمِ.

(١) بحيرة في الملايو غرق المعبد إلى قرارتها.

أما فَجَعْتُكَ فِي طُرُودَةِ الْآهَاتِ مِنْ جَرَحِي
وَمُحْتَضِرِينَ؟

يَا لِدَمٍ أَرِيْقُ فَلَطَّخَ الْجِدْرَانُ
وَرَدَّ تَرَابَهَا الظَّمَانَ طِينًا، رَدَّهُ جُرْحًا
كَبِيرًا وَاحِدًا، جَرَحًا تَفْتَحُ فِي حَشَا الْإِنْسَانِ
لِيَصْرُخَ بِالسَّمَاءِ.

فِيَا لَصَوْتِ رَدِّدَتِهِ نَوَافِذُ الْحُجْرَاتِ وَالْجِدْرَانِ:
«لَأَجْلِ فُجُورِ أَنْثَى وَاتِّقَادِ مُتَوَجِّجِ بِالنَّارِ
تَخَضُّبِ مِنْ دَمِ الْمُهْجَاتِ حَتَّى سُلِّمَ الْأَفْقِ،
وَحَلَّ بِلَا أَوَانٍ يُؤْمِنَا، وَتَسَاوَتِ الْأَعْمَارِ

كَزَّرِعٍ مِنْهُ سَاوَى مِنْجَلٍ...
وَهَنَّاكَ فِي الشَّقَقِ
تَنَوُّحِ نَسَاوِنَا الْمَتَرْمَلَاتِ، يُولُولِ الْأَطْفَالِ عِنْدَ مَدَارِجِ الْأَفْقِ».

☆☆☆☆

هَلُمَّ فَقَدْ شَهَدْتُ، كَمَا شَهَدْتُ، دَمًا وَأَشْلَاءَ:
تَفَجَّرَ فِي بِلَادِي قُمَّقْمٌ مَلَأَتْهُ بِالنَّارِ
دَهْوَرُ الْجُوعِ وَالْحَرْمَانِ.
أَيُّ خَلِيقَةٍ قَاءَ؟
رَأَيْنَا أَنَّ أَفْنِدَةَ التَّنَارِ، وَأَذْوَبَ الْغَارِ
أَرَقُّ مِنْ الرِّعَاعِ الْقَالِعِينَ نَوَاطِرَ الْأَطْفَالِ وَالشَّاوِينَ بِالنَّارِ
شَفَاهَ الْحَلْمَةَ الْعِذْرَاءِ.



يا نَهْرًا من الحقدِ

تدققُ بالخناجرِ والعصيِّ، بأعينِ غَضْبَى:

نجومًا شدَّها قابيلُ بالرَّندِ.

فليتكَ حينَ هَزَّ الموصلَ الأعصارُ (لا دَرْبًا

ولا بيتًا، ولا قبرًا نجا فيها) شهدتِ الأعينُ الغَضْبَى

وليتكَ في قطارٍ مرَّ حينَ تنفَسَ السَّحْرُ

فقصَّ، على سريرِ السكِّةِ الممدودِ، أمراسا^(١)

تعلَّقَ في نهايتهنَّ جسمٌ يحصدُ النظرُ

عليه الجُرْحُ بعدَ الجرحِ بعدَ الجرحِ أكداسا

ليهوِيَ جسمٌ «حَفْصَة»^(٢) لابسًا فوقَ النجيعِ دَمًا

وأمراسا.

وفيمَ نخافُ في تَبَجِّ البحيرةِ أو حفافِها

كواسج^(٣) ضارياتٍ أو تماسيحَ التظلتُ لَهَا

نواجذُها الحديدية؟ فيمَ تخشى كلَّ ما فيها؟

فإنَّ عقاربَ «الرقَّاع»^(٤) يُضمِرُ سَمَّها العَطبا

وتزرعُ في الجسومِ أزاهرَ الدمِ والجراحِ بلا دمٍ لَهَا

☆☆☆☆

هَلُمَّ نشقُّ في «الباهنج»^(٥) حقلَ الماءِ بالمجدافِ

وننتثرُ أجمَ الظلماءِ، نُسقطُها إلى القاعِ

(١) الأمراس: الحبال.

(٢) إحدى شهيدات الموصل (العراق).

(٣) سمك القرش، كلاب البحر.

(٤) أحد أبطال المدِّ الفوضوي في العراق.. حُكِمَ عليه بسبع جرائم.

(٥) النهر المؤدي إلى بحيرة شيني.



حصى ما ميّرتُهُ العَيْنُ عن فيروزه الرفافُ
ولؤلؤهِ المنقَطِ بالظلام.

سنُرعِبُ الراعي
فيُهرُعُ بالخرافِ إلى الحضيّرةِ خوْفَ أن يغرُقَنَ في القاعِ.

☆☆☆☆

هَلُمَّ فليلُ أسيةِ البعيدِ مداهُ، يدعونَا
بصوتِ من نُعاسِ، من ردى، من سَجَعِ كُهَّانِ.
هَلُمَّ... فما يزالُ الدهرُ يُطوى بينَ أيدينا.

لنطوِ دُجَاهَ قَبْلَ طلوعِ شمسِ دونِ ألوانِ
تُبَدُّ عالمَ الأحلامِ، تُخَفِتُ - إذ يرنُّ التَّبْرُ فيها -
سَجَعِ كُهَّانِ !

☆☆☆☆

يجولُ التبرُ فيها مثلَ وحشٍ يأكلُ الموتى
ويشربُ من دمِ الأحياءِ، يسرُقُ زادَ أطفالِ
ليتقدَّ اللظى في عَيْنِهِ، ليُعيّره صوتَا
يُحطِّمُ صوتَ كلِ الأنبياءِ هناك.

يا لرنينِ أغلالِ
ويا لصدىً من الساعاتِ، بالأكفانِ مسَّ رؤوسِ أطفالِ
وفلَّ عناقَ كلِّ العاشقينِ، ودَسَّ في القُبلةِ
مُدَىً من حشرجاتِ الموتِ، ردَّ أصابعِ الأيدي
أشاجعَ غابَ عنها لحمها، وستائرُ الكُلهِ
يُحوّلُها صفائحَ تحتها جثتُ بلا جلدِ

هَلُمَّ فَبَعَدَ مَا لَمَحَ الْمَجُوسُ الْكُوكَبَ الْوَهَّاجَ تُبَسِّطُ

نحوه الأيدي

وَلَا مَلَأَتْ حِرَاءَ^(١) وَصُبْحَهُ الْآيَاتُ وَالسَّوَرُ.

هَلُمَّ فَمَا يَزَالُ زِيُوسٌ يَصْبِغُ قِمَّةَ الْجَبَلِ

بِخَمْرَتِهِ، وَيُرْسِلُ أَلْفَ نَسِيرٍ نَزًّا مِنْ أَحْدَاقِهَا الشَّرْرُ

لِتَخْطَفَ مَنْ يُدِيرُ الْخَمْرَ^(٢) يَحْمَلُ أَكْوَسَ الصَّهْبَاءِ

وَالْعَسَلِ

هَلُمَّ تَزُورُ آلِهَةَ الْبَحِيرَةِ،

ثُمَّ نَرْفَعُهَا لِتَسْكُنَ قِمَّةَ الْجَبَلِ !

البصرة ١٧/٢/١٩٦٢

(١) الغار الذي نزل الوحي فيه على محمد ﷺ.

(٢) غانيميد الشاب اليوناني الذي أرسل إليه زيوس (كبير الآلهة) نسرًا فاخطفه وأصبح ساقياً للآلهة.

سَفْرُ أَيُّوبَ (١)

لَكَ الْحَمْدُ مَهْمَا اسْتَطَالَ الْبَلَاءُ
ومهما استبدَّ الألمُ،
لَكَ الْحَمْدُ، إِنَّ الرِّزَايَا عَطَاءُ
وإنَّ المصِيبَاتِ بَعْضُ الكَرَمِ.
أَلَمْ تُعْطِنِي أَنْتَ هَذَا الظَّلَامُ
وَأَعْطَيْتَنِي أَنْتَ هَذَا السَّحَرُ؟
فهل تشكُرُ الأَرْضُ قَطَرَ المَطَرِ
وتغضبُ إن لم يجدها الغمامُ؟
شهورٌ طوالٌ وهذي الجراحُ
تُمزقُ جنبِي مثلَ المَدَى
ولا يهدأ الداءُ عند الصِّباحِ
ولا يمسحُ الليلُ أوجاعَهُ بالردى.
ولكنَّ أَيُّوبَ إن صاح صاح:
«لَكَ الْحَمْدُ، إِنَّ الرِّزَايَا ندى،
وإنَّ الجراحَ هدايا الحبيبِ
أضُمُّ إلى الصدرِ باقاتها،
هداياك في خافقي لا تغيبُ،
هداياك مقبولةً. هاتها!»
أشدُّ جِراحِي وأهتفُ بالعائدينُ:

«ألا فانظروا واحسدوني، فهذي هدايا حبيبي.

وإن مسَّتِ النارُ حرَّ الجبينِ

توهمتُّها قبلةً منكِ مجبولةً من لهيبِ.

جميلٌ هو السُّهدُ أرعى سماكَ

بعينيّ حتى تغيبَ النجومُ

ويلمسَ شبَّاكَ داري سَنَّاكُ.

جميلٌ هو الليلُ: أصداءُ يومٍ

وأبواقُ سيارةٍ من بعيدٍ

وأهاتُ مَرَضَى، وأمَّ تُعيدُ

أساطيرَ آبائها للوليدُ.

وغاباتُ ليلِ السُّهادِ، الغيومُ

تُحجِّبُ وَجْهَ السماءِ

وتجلوهُ تحتَ القمرِ.

وإنَّ صاحَ أيُّوبُ كانَ النداءَ:

«لَكَ الحمدُ يا رامياً بالقَدَرِ

ويا كاتباً، بعدَ ذاكِ، الشُّفاءُ!»

لندن ٢٦/٢/١٩٦٢

سَفْرُ أَيُوبَ (٨)

ذَكَرْتُكَ يَا لَمِيعَةَ وَالِدَجَى ثَلْجٍ وَأَمْطَارُ،
وَلِنَدْنُ مَاتَ فِيهَا اللَّيْلُ، مَاتَ تَنْفَسُ النُّورِ.
رَأَيْتُ شَبِيهَةً لَكَ شَعْرُهَا خُلْمٌ وَأَنْهَارُ،
وَعَيْنَاهَا كَيْئُوبِ عَيْنٍ فِي غَابٍ مِنَ الْحَوْرِ.
مَرِيضًا كُنْتُ تُثْقَلُ كَاهِلِي وَالظُّهْرَ أَحْجَارُ،
أَحْنُ لَرِيفٍ جِيكُورِ
وَأَحْلُمُ بِالْعِرَاقِ: وَرَاءَ بَابِ سَدِّتِ الظُّلْمَاءِ
بَابًا مِنْهُ وَالْبَحْرُ الْمَزْمَجْرُ قَامَ كَالسُّورِ
عَلَى دَرْبِي.
وَفِي قَلْبِي
وَسَوَاسُ مَظْلَمَاتِ غَابَتِ الْأَشْيَاءِ
وَرَاءَ حِجَابِهِنَّ وَجَفَّ فِيهَا مَنَبَعُ النُّورِ.
ذَكَرْتُ الطَّلْعَةَ السَّمْرَاءِ،
ذَكَرْتُ يَدَيْكَ تَرْتَجِفَانِ مِنْ فَرَقٍ وَمِنْ بَرْدِ
تَنْزُرُ بِهِ صَحَارَى لِلْفِرَاقِ تَسْوِطُهَا الْأَنْوَاءِ.
ذَكَرْتُ شَحُوبَ وَجْهِكَ حِينَ زَمَّرَ بوقُ سَيَّارِهِ

ليؤذن بالوداع. ذكرتُ لذَّعِ الدمعِ في خدي
ورِيشةَ خافقي وأنينَ رُوحِي يملأُ الحارهُ
بأصداءِ المقابرِ. والدُّجى تُلجُّ وأمطارُ.

لندن ١٩٦٣/١/٢

منزل الأقدان (في جيكور)

خرائبُ فانزع الأبوابَ عنها تغدُ أطلالا،
خوالٍ قد تصكُّ الرياحُ نافذةً فتشرعها إلى الصُّبحِ
تُطلُّ عليكَ منها عينٌ يومِ دائبِ النُّوحشِ.
وسلمُّها المحطَّمُ، مثلَ بُرجِ دائرٍ، مالا
يئنُّ إذا أتتهُ الرياحُ تُصعدُهُ إلى السطحِ،
سفينٌ تعركُ الأمواجُ ألواحهُ

☆☆☆☆

وتملاً رُحبةَ الباحةِ
ذوائبُ سدريةٍ غرباءَ تزحُمُها العصافيرُ
تعدُّ خطى الزمانِ بسقسقاتٍ، والمناقيرُ
كأفواهٍ من الديدانِ تأكلُ جثةَ الصمتِ
وتملاً عالمِ الموتِ
هَسَهسةَ الرثاءِ، فتفرغُ الأشباحُ تحسبُ أنه النورُ
سيُشرقُ، فهي تُمسكُ بالظلالِ وتهجرُ الساحةَ
إلى العُرفِ الدجِيَّةِ وهي تُقظُ ربةَ البيتِ:
«لقد طلعَ الصبَّاحُ». وحينَ يبكي طفلها الشَّبَّحُ
تُهددهُ وتُنشدُ: «يا خيولَ الموتِ في الواحِ
تعالِي واحمليني، هذه الصحراءُ لا فرحُ
يرفُّ بها ولا أمنٌ ولا حُبٌّ ولا راحةُ».

ألا يا منزلَ الأَقنان، كم من ساعدٍ مفتولٍ
رأيتَ ومن خطى يهتَزُّ منها صخرُك الهاري !
وكم أغنيَّةٍ خضراءٍ طارت في الضحى المغسولِ
بالشمسِ الخريفيةِ،

تُحدِّثُ عن هوىِّ عاري

كماءِ الجدولِ الرقراقِ ! كم شوقٍ وأمنيَّةُ !!

وكم ألمٍ طويِّتَ وكم سقيتَ بمدمعٍ جاري؟!

وكم مهدٍ تهزهرَ فيكَ: كم موتٍ وميلادٍ

ونارٍ أوقدتَ في ليلةِ القَرِّ الشتائيَّةِ !!

يُدننُ حولها القصَّاص: «يُحكى أن جنية...»

فيرتجفُ الشيوخُ ويصمتُ الأطفالُ في دهشٍ وإخلاقٍ

كأنَّ زئيرَ آلافِ الأسودِ يرنُّ في وادٍ

وقد ضلُّوا حيارى فيه، ثمَّ ترنَّ أغنيَّةُ:

«أتى قمرُ الزمانِ...» وندنَ القصَّاص: «جنية»!

وبؤسهمُ الميريرُ: الجوعُ والأحزانُ والسَّقَمُ

وطفلٌ ماتَ لما جفَّ دُرٌّ - ماتَ المعزَّى

وجاعتَ أمُّه فالتدِّيُّ لا لبنٌ ولا لحمٌ.

سمعتُ صُراخَها والليلُ ينظرُ نجمه غمزا،

وولولةُ الأبِ المفجوعِ يخنقُ صوته الألمُ

☆☆☆☆

ولو خُيرتُ أبدلتُ الذي ألقى بما ذاقوا،

ممضٌ ما أعاني: شلُّ ظهرٍ وانحنَتْ ساقُ.

على العُكَّازِ أسعى حينَ أسعى، عاثَرُ الخُطواتِ مُرتجفا

غريبٌ غيرَ نارِ الليلِ ما وِاسأهُ من أحدِ
بلا مالٍ، بلا أملٍ، يُقَطِّعُ قلبَهُ أسفاً.
ألسْتُ الراكضَ العَدَاءِ في الأَمسِ الذي سَلَفًا؟
أأمكْتُ أم أعودُ إلى بلادي؟ أه يا بلدي
وما أملُ العَليلِ لديك شحَّ المالِ ثم رمتهُ بالداءِ
سِهَامٌ في يدِ الأَقدارِ ترمي كلَّ من عَطَفا
على المرضي وشَدَّ على ضلوعِ الجائعينِ بصدرةِ الواهي
وكفكفَ أدمعَ الباكينِ يغسلُها بما وكفا
من العَبَرَاتِ في عينيه - إلا رَحمةَ اللهِ؟؟

☆☆☆☆

ألا يا منزلَ الأفتانِ، سَقَّتكَ الحيا سُحْبُ
تُرؤي قبريَ الظمآنِ،
تلتمه وتنتحبُ!

لندن ١٩٦٣/١/٣

شناشيل^(١) ابنة الجلي

وأذكرُ من شتاءِ القريةِ النَّصَّاحِ فيه النُّورُ
من خَلَلِ السَّحَابِ كَأَنَّهُ النَّعْمُ
تسرَّبَ من ثُقُوبِ المِعزَفِ - ارتعشتُ له الظُّلْمُ
وقد غنَّى - صباحًا قبلُ... فيمَ أعدُّ؟ طفلًا كنتُ
أبتسمُ
لليلي أو نهاري أثقلتُ أغصانهُ النشوى عُيونُ الحورِ.
وكنَّ - جدنا الهدارِ يضحكُ أو يُغني في ظلالِ الجوسقِ
القَصَبِ

وفلاحيه ينتظرون: «عَيْتِكَ يا إله» وإخوتي في
غابةِ اللَّعِبِ
يصيدون الأرانبَ والفراشَ، و(أحمدَ) الناطورِ -
نحدقُ في ظلالِ الجوسقِ السمرِّاءِ في النَّهْرِ
ونرفَعُ للسحابِ عيوننا: سيسيلُ بالقَطْرِ.
وأرعدتِ السماءُ فرنَّ قاعُ النَّهْرِ وارتعشتُ ذرى السَّعْفِ
وأشعلهنَّ ومضُ البرقُ أزرقٌ ثمَّ أخضرَ ثم تنطفئُ
وفتحتِ السماءُ لغيثها المِدرارِ بابًا بعدَ بابِ
عادَ منه النَّهْرُ يضحكُ وهو ممتلئُ
تُكلله الفقائِعُ، عادَ أخضرَ، عادَ أسمرَ، غصَّ
بالأنغامِ واللَّهْفِ
وتحتِ النَّخْلِ حيثُ تظلُّ تُمطرُ كلُّ ما سَعَفَهُ

(١) الشناشيل: شُرفة مغلقة، مزينة بكثير من الخشب المزخرف والزجاج الملون، كان شائعًا في البصرة وبغداد قبل مائة سنة. والجلي لقب هو عند المصريين «شلي»، وعند الأوربيين «ماركين».

تراقصتِ الفقائِعُ وهي تُفجِرُ - إِنَّهُ الرُّطْبُ

تساقطُ في يدِ العذراء^(١) وهي تهزُّ في لهفه
بجدعِ النخلةِ الفرعاء (تاجٌ وليدكِ الأنوارُ لا الذهبُ،
سيصلبُ منه حُبُّ الآخرين، سيبرئُ الأعمى
ويبعثُ من قرارِ القبرِ مَيِّتًا هدهُ التَّعبُ
من السَّفَرِ الطويلِ إلى ظلامِ الموتِ، يكسو عَظْمَه اللحمِ
ويقدُّ قلبَه الثلجيُّ فهو بحبه يثبُ!)

☆☆☆☆

وأبرقتِ السماءُ... فلاح، حيثُ تعرَّجُ النهرُ،
وطافَ معلقًا من دونِ أسِّ يلثمُ الماءَ
شناشيلُ ابنةِ الجلبِيِّ نورَ حوله الرُّهْرُ
(عقودُ ندىٍ من اللبلابِ تسطعُ منه بيضاءُ)
وآسيةُ الجميلةُ كحلَّ الأحداقِ منها الوجدُ والسَّهرُ.

☆☆☆☆

يا مطرًا يا حلبي
عبْرُ بناتِ الجلبِي
يا مطرًا يا شاشا
عبْرُ بناتِ الباشا
يا مطرًا من ذهبِ.

☆☆☆☆

تقطعتِ الدروبُ، مقصُّ هذا الهاطلِ المدرارِ
قطَّعها ووزَّأها،
وطوفتِ العابرُ من جذوعِ النخلِ في الأمطارِ
كغرقى من سفينةِ سِنبادِ، كقصَّةِ خضراءِ أرجأها وخلَّأها

(١) «وهزِّي إليكِ بجدعِ النخلةِ تُساقطُ عليكِ رطبًا جنياً.» (سورة مريم - القرآن الكريم).

الى الغدِ (أحمدُ) الناطورُ وهو يديرُ في الغرفة
كؤوسَ الشاي، يلمس بندقيتهُ ويسعل ثم يعبر طرفه
الشُرْفَه

ويخترقُ الظلامَ.

وصاحَ «يا جدِّي» أخي الثرثارُ:
«أنمكتُ في ظلامِ الجؤسِقِ المبتلِّ ننتظرُ؟
متى يتوقفُ المطرُ؟»

☆☆☆☆

وأرعدتِ السماءُ، فطارَ منها ثمةَ انفجرا
شناشيلُ ابنةِ الجلبِيّ..

ثمَّ تلوحُ في الأفقِ

ذُرى قَوسِ السحابِ... وحيثُ كانَ يُسارقُ النظرا
شناشيلُ الجميلةُ لا تصيبُ العينُ إلا حُمرةَ الشفقِ.
ثلاثونَ انقضتُ، وكبُرْتُ: كم حُبُّ وكم وجدِ
توهجَ في فؤادي!

غيرَ أنّي كلِّما صَفَقَتْ يدا الرعدِ
مددتُ الطرفَ أرقبُ: ربما اتلَقَ الشناشيلُ
فابصرتُ ابنةَ الجلبِيّ مُقبلةً إلى وعدي!
ولم أرها. هواءٌ كلُّ أشواقي، أباطيلُ
ونبتٌ دونما ثَمَرٍ ولا وَرْدٍ!

لندن ١٩٦٣/٢/٢٤

أحبيني...!

وما من عادتي نكرانُ ماضيِّ الذي كانا،
ولكنُ.. كلُّ مَنْ أحببتُ قبلكِ ما أحبوني
ولا عطفوا عليَّ، عشقتُ سبعاُ كُنَّ أحيانا
تَرفُ شعورهنَّ عليَّ، تحملني إلى الصينِ
سفائنُ من عطورِ نهودهنَّ، أغوص في بحرٍ من الأوهامِ والوجدِ
فالتقطُ المحارَ أظنُّ فيه الدرَّ، ثمَّ تُظلِّني وحدي
جائلُ نخلة فرعاءِ

فأبحثُ بينَ أكوامِ المحارِ، لعلَّ لؤلؤةً ستبزغُ منه كالنجمه،
وإذُ تدمي يداي وتُنزِعُ الأظفارُ عنها، لا ينزُّ هناك غيرُ الماءِ
وغير الطينِ من صدَفِ المحارِ، فتقطرُ البسْمه
على ثغري دموعاً من قرارِ القلبِ تنبثقُ،
لأنَّ جميعَ مَنْ أحببتُ قبلكِ ما أحبوني.
وأجلسهنَّ في شُرفِ الخيالِ.. وتكشفُ الحرُّقُ
ظلالاً عن ملامهنَّ: أه فتلكِ باعنتي بمأفونِ
لأجلِ المالِ، ثمَّ صحا فطلَّقها وخلاها.

وتلك.. لأنها في العُمُرِ أكبرُ أم لأنَّ الحُسْنَ أغراها
بأنِّي غيرُ كُفءٍ، خلِّفتني كلما شَرِبَ الندى وَرَقُ
وفتَحَ بُرعَمُ مثلثتها وشممتُ رِيَّها؟
وأمسِ رأيثها في موقفِ اللباصِ تنتظرُ

فباعدتُ الخُطى ونأيتُ عنها، لا أريد القربَ منها،

هذه الشَّمطاء

لها الويلات؟ ثمَّ عرفتُها: أَحَسِبْتِ أَنَّ الحُسْنَ ينتصرُ

على زمنٍ تحطمَ سورُ بابلَ منه، والعنقاء

رماً منه لا يُذكيه بعثُ فهو يستعرُ؟

وتلكَ كَأَنَّ في غمازتيها يفتحُ السَّحْرُ

عُيونَ الفُلِّ والبلاب، عافتني إلى قصرٍ وسيَّاره،

إلى زوجٍ تغيَّرَ منه حالٌ، فهو في الحارِّه

فقيرٌ يقرأ الصُّحفَ القديمةَ عندَ بابِ الدَّارِ في استحياءٍ،

يُحدثُها عن الأمسِ الذي وَلَّى فَيَأْكُلُ قلبَها الضَّجْرُ.

وتلكَ وزوجُها عبداً مظاهراً، ليلها سَهْرُ

وَحَمْرُ أو قِمَارٌ ثمَّ يُوصدُ صُبْحَها الإغفاءُ

عن النهرِ المُكرِّكِ للشراعِ يرفُّ تحتَ الشمسِ والأنداءِ.

وتلكَ؛ وتلكَ شاعرتي التي كانت لي الدنيا وما فيها،

شربتُ الشَّعْرَ من أحداقها ونعستُ في أفياءِ

تُنشِئُها قصائدها عليّ: فكلَّ ماضيها

وكلَّ شبابها كانَ انتظاراً لي على شطِّ يَهُومُ فوقَه القمرُ

وتنعسُ في جِماه الطيرُ رَشَّ نَعاسِها المطرُ

فنبَّهها فطارتُ تملأُ الأفاقَ بالأصداءِ ناعسةً

توجُّجُ النورِ مرتعشاً قوادمُها، وتخفقُ في خوافيها

ظلالُ الليلِ. أَيْنَ أَصِيلُنَا الصيفيُّ في جيكوْرُ؟

وسارَ بنا يوسوسُ زورقُ في مائه البلورُ؟

وأقرأ وهي تُصغي والرُّبى والنخلُ والأعنابُ تحلُّمُ في دواليها؟

تفرقت الدروبُ بنا نسيرٌ لغير ما رجعه،
وغيبها ظلامُ السّجنِ تونسٍ ليلها شمعهُ
فتذكّرني وتبكي. غير أنّي لستُ أبكيها
كفرتُ بأمّةِ الصحراءِ

ووحى الأنبياءِ على تراها في مغاور مكّةٍ أو عند واديهها.
وأخرهنّ؟؟

أه.. زوجتي، قدرتي. أكان الداء

ليقتدني كأني ميّتٌ سكرانٌ لولاها؟

وها أنا؟... كلٌّ من أحببتُ قبلك ما أحبوني.

وأنتِ؟ لعله الإشفاقُ!!

لستُ لأعذر الله

إذا ما كان عطفٌ منه، لا الحبِّ، الذي خلاه يسقيني

كؤوساً من نعيم.

أه، هاتي الحبِّ، روّيني

به، نامي على صدري، أنيميّني

على نهديك، أوّاه

من الحرّقِ التي رَضَعْتُ فؤادي ثمّةً أفتستُ شراييني.

أحبيّني

لأنّي كلٌّ من أحببتُ قبلك لم يُحبوني.

باريس ١٩٦٣/٣/١٩

رسالة

رسالة منك كاد القلب يلثمها
رسالة لم يهبَّ الوردُ مشتعلًا
لكنها تحملُ الطيبَ الذي سكرتُ
في غابة من دخان التَّبغِ أزرعها
لولا الضلوع التي تثنيه أن يثبا
فيها، ولم يعبُقُ النارجُ ملتها
روحي به ليلَ يتنا نرقبُ الشُّهبا
وغابةٍ من عبير منك قد سربا
بَل الحيا منه والأنسام والمطرُ

جاءت لمرتجفٍ

على السرير، وراء الليل يُحتضِرُ

لاولا هواك وبُقيا فيه من أسفٍ

إن لم يروِّ هواهُ منك فهو على الشطين ينتظرُ

سفينة يتشهى ظلُّها النَّهْرُ

فيها الشقاء هو الرِّيان، والقَدْرُ

فيها المغني

لكانَ مما عراه الداء ينتحرُ!

جاءت تُحدِّثني عني

عن شهقة الصيف في جيكور يُحتضِرُ

عن صوتِ أغربة تبكي، وأصداءٍ

تُذرذر الظلمة الصفراء في السَّعْفِ

وعن بناتٍ لأوى خلفَ منعطفٍ

تعوي فتهتفُ أمُّ! «أين أبناي!؟»

وتنفض الدربَ عيناها وتهتفُ!

«يا محمود... علوان!»

لا ردُّ ولا خبرُ!

☆☆☆☆

ويا حديثكُ عن «آلاء» يلذعُها

بُعدي فتسألُ عن بابا «أما طابا»^(١)

أكادُ أسمعُها

رغمَ الخليجِ المدويِّ تحتَ رغوتهِ

أكادُ ألثمُ خديها وأجمعُها

في ساعديّ...

كأنِّي أقرعُ البابا

فتفتحينَ...

وتُخفي ظلنَا السُّتُرُ!!

الكويت ١٩٦٤/٨/٣

(١) آلاء: طفلة الشاعر. و«أما طابا» - تعني «أما بل»، «أما سُخي من مرضه».

ليلة انتظار

يدُ القمرِ النديَّةُ بالشذى مرَّتْ على جُرْحِي،
يدُ القمرِ النديَّةُ مثلَ أعشابِ الربيعِ لها إلى الصُّبْحِ
خُفوقٌ فوقَ وجهي، كَفُّ طفَلتِي الصغيرةِ، كَفُّ آلاءِ!
وهمسٌ حولَ جُرْحِي: كَفُّ طفَلتِي الكبيرةِ، كَفُّ غيداءِ
تُدغغني ونحنُ على السريرِ معًا على السطحِ
هناك!! وآه من ذاكِ المدى النَّائِي،
لأقربُ منه مجمرَةٌ التُّريا وهي تلتهبُ
بعيدٌ بَعْدَ يومٍ فيه أمشي دونَ عُكازٍ على قدمي
يُسْتُ من الشِّفاءِ، يَسْتُ منه وهُدُنِي التعبُ
وحلَّ الليلُ ما أطويه من سَهَرٍ إلى سَهَرٍ ومن ظلمٍ إلى ظلمِ
ولكنَّ اليدَ النديانةَ الكسلى ترشُّ سنابلَ القمحِ
على دربٍ من الهمَّساتِ في حُلْمِ
بلا نومٍ يرفُّ على جفوني ثمَّ يحشوهنَّ بالملحِ

☆☆☆☆

غداً تأتينِ يا إقبال، يا بعثي من العَدَمِ
ويا موتي ولا موتُ.
ويا مرسى سفينتي التي عادتُ ولا لوحٌ على لوحِ
ويا قلبي الذي إنْ مُتُّ أتركُهُ على الدنيا ليبيكيني
ويجأُ بالرتاءِ على ضريحي وهو لا دمَعٌ ولا صوتُ

أَحْبَبْنِي! إِذَا أَدْرَجْتُ فِي كَفْنِي... أَحْبَبْنِي
سَتَبْقَى - حِينَ يَبْلَى كُلُّ وَجْهِي، كُلُّ أَضْلَاعِي
وَتَأْكُلُ قَلْبِي الدِيدَانُ، تَشْرِئُهُ إِلَى الْقَاعِ
قَصَائِدُ... كُنْتُ أَكْتُبُهَا لِأَجْلِكَ فِي دَوَاوِينِي
أَحْبَبْنِي!!

الكويت - المستشفى الأميري

١٩٦٤/٨/٥

إقبال والليل^(١)

وما وَجُدْتُ ثكلىً مثلَ وجدِي إذا الدَّجَى تهاوَيْنَ كالأمطارِ بالسُّهدِ
أحْنُ إلى دارِ بَعِيدٍ مزارها وَرُغْبٌ جِياحٍ يصرخونَ على بُعْدِ
وأشفقُ من صُبحِ سِيأتِي، وأرتجي مجيئاً له يجلو من اليأسِ والوجدِ

☆☆☆☆

الليلُ طالَ وما نهاري حينَ يُقبَلُ بالقصيرِ
الليلُ طالَ: نُباحُ آلافِ الكلابِ من الغيومِ
ينهلُّ، ترفعه الرياحُ، يرنُّ في الليلِ الضريرِ
وهتافُ حراسِ سهارى يجلسونَ على الغيومِ
الليلُ والعشاقُ ينتظرونَ فيه على سَنَا النجمِ الأخيرِ

☆☆☆☆

يا ليلُ ضَمَّخَكَ العراقُ
بعبيرِ تُربتهِ وهدأةِ مائه بينَ النخيلِ
إني أَحسُّكَ في الكويتِ وَأنتِ تُثَقِّلُ بالأعاني والهديلِ
أغصانُكَ الكسلىِ و«ياليلُ» طويلُ
ناحتُ مطوّقةً ببابِ الطاقِ في قلبي تُذَكِّرُ بالفراقِ
في أيِّ نجمٍ مطفأً الأنوارِ يخفقُ في المجرَّةِ
أَلقتُ بي الأقدارُ كالحجرِ الثقيلِ
فوقَ السريرِ كأنَّه التابوتُ لولا أَنَّهُ وَدَمٌ
يُراقُ
في غرفةٍ كالقبرِ في أحشاءِ مستشفى حواملِ
بالأسرَّةِ.

(١) لم تُورِّخ هذه القصيدة، إلا أنها من قصائده الأخيرة التي كتبها أيام الاستشفاء في الكويت.



يا ليلُ أينَ هو العراقُ؟

أينَ الأحبَّةُ؟ أينَ أطفالي؟ وزوجي والرفاقُ؟

يا أمَّ غيلانِ الحبيبةَ صوّبي في الليلِ نظره

نحوَ الخليجِ. تصوّريني أقطعُ الظلماءَ وحدي

لولاك ما رُمْتُ الحياةَ ولا حنَّنتُ إلى الديارِ

حبَّبتُ لي سُدَفَ الحياةِ، مسحتها بسنا النهارِ

لِمَ توصدينَ البابَ دوني؟ يا لجوَابِ القفارِ

وصَلِ المدينةَ حينَ أطبقتِ الدّجى ومضى النهارُ

والبابُ أغلقَ فهو يسعى في الظلامِ بدونِ قصدِ

☆☆☆☆

وحَوَّضَ في الظلماءِ سمعي تشدّهَ بجيكور أهاتُ تحدّرنَ من المدِّ

بكاءً وفلاحونَ جوعى صغارهمُ تُصبرهم عذراءُ تحنو على مهدِ

يُغني أساها خافقُ النجمِ بالأسى وتروي هواها نسمةُ الليلِ بالورْدِ

أينَ الهوى مما ألقى والأسى مما ألقى؟

يا ليتني طفلٌ يجوع، يئنُّ في ليلِ العراقِ!

أنا ميّتٌ ما زال يُحتضِرُ الحياةَ

ويخافُ من غده المهدّدِ بالمجاعةِ والفرارِ

إقبالُ مُدّي لي يديك من الدّجى ومن الفلاةِ،

جِسي جراحي وامسحيتها بالمحبّةِ والحنانِ

بكِ ما أفكّرُ لا بنفسي: ماتَ حُبُّكِ في ضحاهُ

وطوى الزمانُ بساطَ عرسكِ والصبي في

العنفوانِ



المَعُولُ الحَجْرِي (١)

رَنِئُ المَعُولِ الحَجْرِيَّ فِي المَرْتَجِّ مِن نَبْضِي
يُدمَّرُ فِي خِيَالِي صُورَةَ الأَرْضِ
وَيَهْدَمُ بُرْجَ بَابِلَ، يَقلَعُ الأبوابَ، يخلَعُ كُلَّ أَجْرَهُ
وَيُحرقُ مِن جَنائِنِها المَعلَقَةِ الَّذِي فِيها
فَلا ماءً وَلَا ظِلًّا وَلَا زَهْرَةَ
وَيَنبذُنِي طَريداً عَندَ كَهْفٍ لَيسَ تَحمي بِأَبِهِ صَخْرَهُ
وَلَا تُدمي سِوادَ اللَّيْلِ ناراً فِيهِ تُحَيِّبُنِي وَأُحَيِّبُها.
تعالِي يا كِواسِرُ يا أَسودُ وِيا نَمورُ وَمَرزَقي الإنسانُ
إِذا أَخَذتَهُ رَجفَةً ما يَبِثُّ اللَّيْلُ مِن رُعبِ
فُضْجِي بِالرَّزِيرِ وَزَلزَلِي قَبْرَهُ.
دِماغِي وارثُ الأَجيالِ، عابِرُ لَجةِ الأَكوانِ
سِياكُلُ مِنه داءٌ شَلَّ قَدَمِي، شَدَّ يَدًا عَلى قَلبِي
كَلامُ ذاكِ أَصدُقُ مِن نَبوءَةِ أَيِّ عَرافِ
تُريه مَسالِكُ الشُّهْبِ
حُمى الأَسرارِ، تُطلَعُهُ عَلى المَترَبِّصِ الخانِي
إِذا نَطَقَ الطَبيبُ فاسكَتوا العَرافَ والفِوالِ.
رَنِئُ المَعُولِ الحَجْرِيَّ يَرحفُ نَحوَ أَطرافِي
سَأعْجُرُ بَعدَ حَينٍ عَن كِتابَةِ بَيتِ شِعْرِ فِي خِيالِي جالِ

(١) هذه القصيدة لم تُؤرَّخ، ولكنها القصيدة الأخيرة التي كتبها الشاعر وهو يرقد في المستشفى الميري بالكويت

فدُونكَ يا خيالَ مدَى وأفاقِ وألفُ سماءِ
وفَجَّرَ من نجومك، من ملايينِ الشموِسِ، من الأضواءِ
واشعلَ في دمي زلزالُ
لأُكتبَ قبلَ موتي، أوجنوني، أو ضمورِ يدي من الإعياءِ
خوالجِ كلِّ نفسي، ذكرياتي، كلِّ أحلامي
وأوهامي

وأسفحُ نفسي التكلَى على الورقِ
ليقرأها شقِّي بعدَ أعوامٍ وأعوامٍ
ليعلمَ أنْ أشقى منه عاشَ بهذه الدُّنيا
وآلى رِغمَ وحشِ الداءِ والآلامِ والأرقِ
ورِغمَ الفقرِ أنْ يحيا.

ويا مَرَضِي، قِناعُ الموتِ أنتِ، وهل تُرى لو أسفَرَ الموتُ
أخافُ؟ ألا دِعِ التكبيرةَ الصفراءِ والثقبينِ،
حيثُ امتصَّتِ العينينِ

جحافلُ من جيوشِ الدودِ يجثمُ حولها الصمْتُ،
تلوُّحُ لناظري. ودِعِ الدماءَ تسحَّ من أنفي، من الثقبينِ.

فأينَ أبي وأُمِّي.. أينَ جَدِّي، أينَ أبائي

لقد كتبوا أساميهم على الماءِ

ولستُ براغبٍ حتى بخطِ اسمي على الماءِ.

وداعًا يا صحابي، يا أحبائي

إذا ما شئتُمو أنْ تذكروني فاذكروني ذاتَ قمرٍ

وإلا فهو محضُ اسمٍ تبيدُ بينَ أسماءِ

وداعًا يا أحبائي..

المحتوى

- ٣ - تصدير أ. عبدالعزيز سعود الباطين.....
٥ - هذه المختارات: أ. ماجد صالح السامرائي.....

المختارات

- ٢٣ - ديوان شعر.....
٢٨ - نهر العذاري.....
٣١ - هل كان حُبًّا؟.....
٣٥ - في السوق القديم.....
٤١ - أساطير.....
٤٥ - نهاية.....
٤٩ - غريب على الخليج.....
٥٤ - أغنية في شهر آب.....
٥٨ - المخبر.....
٦٢ - في المغرب العربي.....
٦٨ - جيكور والمدينة.....
٧٢ - العودة لجيكور.....
٧٨ - النهر والموت.....
٨١ - المسيح بعد الصَّلب.....

- ٨٥..... - أنشودة المطر
- ٩١..... - مدينة بلا مطر
- ٩٦..... - شبّاكٌ وفيقة (١)
- ٩٩..... - شبّاك وفيقة (٢)
- ١٠٢..... - أم البيروم
- ١٠٦..... - دار جدّي
- ١١٠..... - الأم والطفلة الضائعة
- ١١٣..... - المعبد الغريق
- ١٢٠..... - سفّر أيّوب (١)
- ١٢٢..... - سفّر أيّوب (٨)
- ١٢٤..... - منزل الأفنان (في جيكور)
- ١٢٧..... - شناشيل ابنة الجَلبي
- ١٣٠..... - أحبّيني...!
- ١٣٣..... - رسالة
- ١٣٥..... - ليلة انتظار
- ١٣٧..... - إقبال والليل
- ١٣٩..... - المعوّل الحجري
- ١٤١..... - المحتوى



